باخوميوس أب الشركة
وتادرس تلميذه

١

حياته الأولى

جهاد صبي

في أواخر القرن الثالث، في إقليم طيبة، حيث بلغت الديانة المصرية أقصى درجات الانحطاط الخلقي، واتسمت الفلسفات العالمية فيها بالرذائل والنجاسات التي تعافها النفس... ولد الطفل "باخوم"[١]...

اهتم والداه به، فأدباه بالآداب الوثنية، وعلماه أصول العبادة، وفقهاه بالفلسفات العالمية...

درس باخوم في إحدى المدارس الدينية، وتخصص في دراسة ديانات مصر القديمة...

نشأ باخوم وسط هذه البيئة، وتثقف بهذه الدراسات، لكن قلبه كان ينفر من الدنس ويكره الشر. فقد أتسم منذ صباه بالهدوء والإتضاع ودماثة الأخلاق، يزدري بالتعاليم الوثنية وأساطيرها، ويتضايق من رذائلها. يبحث عن الحق ويتوق إليه....

قد يكون هذا عجيباً، لكن الله –محب كل البشر– ليس عنده محاباة، وهب الإنسان ناموساً طبيعياً يميز الحق من الباطل، يطلب المعرفة ويبحث عن الأبدية ويتوق إلى الحياة الفضلى... وكل ما فعله باخوم أنه لم يترك لبيئته الفاسدة أن تحطم ذلك الناموس الطبيعي وتكبته، بل كلما أشتد الظلام حوله، تاق إلى معرفة النور والتمتع به....

لقتد جاءه والده يوماً بنبيذ عن تقدمات الأصنام.. أما باخوم الصبي فإذ وضعه في فمه قذفه للحال.

---

(١) جاء في دائرة المعارف البريطانية، وفي كتاب "قديسو مصر" أنه ولد سنة ٢٩٢م. وفي رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية سنة ٢٩٠م. وعلى وجه التحقيق ما بين ٢٨٥–٢٩٥م. وفي كتاب "أثناسيوس الرسولي حامي الإيمان القويم" للمؤرخ كامل صالح نخلة سنة ٢٩٤م.
ويرى البعض أنه ولد بقرية Antinoi جنوب أسنا. بينما يرجح البعض أنه ولد ببلدة كينوبوسكيون Kenoboskion أو Chenoboseium وهي مواجهة لقصر الصياد. ويقال أن اسمها مأخوذ عن الطيور الضخمة التي كانت تمثل تجارة عظيمة فيها... ويقال أنها تعني بالإغريقية "مقر الرهبنة أو مجموعات القلايات" وربما تكون مأخوذة عن "كونوبيوم" بالقبطية أي "مجمع" وعلى ذلك يكون اسمها قد أخذته بعد إنشائه للأديرة.

هذه إحدى حوادث من كثير من الأمور التي فيها أعلن الصبي عن رغبته في الحياة الفضلى... الأمر الذي أثار الشيطان ضده، إذ توقع لا عن سابق معرفة، لكن بحسب خبرته الطويلة، أنه لا بد لهذا الصبي من أن يعرف الحق، ويشهد له، ويكون سبباً في اغتصاب نفوس كثيرة من يديه لتكون عروساً للرب... لذلك كان يثير خدامه عليه ليقصوه بعيداً عن هياكله...

لقد روى باخوم نفسه فيما بعد لأولاده بعضاً مم حدث له في صبوته لكي يبعث فيهم حب العفة والبحث عن الحق.

قال أنه في يوم أعطاه والداه إناء به لحم مطبوخ ليذهب إلى عمال كانوا يعملون في موضع آخر.

أخذ الصبي الإناء وفي الطريق كان يرفع أنظاره نحو السماء طالباً من إلهه أن يعرفه ذاته... وفيما هو يسبح في أفكاره إذ بالشياطين تظهر له كالخيل تريد قتله. أما هو فرفع عينيه إلى السماء وبكى... وللحال هربوا.

ولما بلغ الموضع المعين، أعطى القدر للعمال... وإذ كان الوقت قد أمسى نام.

وفيما هو نائم، إذا بإحدى بنتي أحد العمال تطلب منه أن يصنع معها الشر، وكانت هي وأختها جميلتين جداً.

أنزعج الصبي لهذا الطلب، وفي عتاب عنيف وبخها قائلاً "لا يمكنني أن أصنع هذا الفعل الشرير. هل عيناي عيني كلب حتى أضاجع أختي؟!"

ولما قال هذا خلصه الرب من التجربة... أما هو فهرب وعاد إلى منزله للحال.

وروى باخوم عن نفسه أيضاً أن والديه مضيا معه يوماً إلى أحد هياكل الوثن على ضفاف النيل لتقديم القرابين والبخور للشياطين القاطنة في النهر. فلما أبصره الكاهن المكلف بحراسة باب الهيكل صار في حالة شبه جنونية، وأخذ يصرخ قائلاً "أبعدوا عدو الآلهة من هنا. أقصوه إقصاء عن هيكلنا وعن احتفالاتنا".

وإذ سمع والداه هذا اغتما جداً، لأن ابنهما عدو للمظنون أنهم آلهة.

+ + +

استنارته

في عام ٣١٠م أعلن الإمبراطور مكسيمانوس دايا الحرب ضد قسطنطين الكبير، فطلب قسطنطين عوناً من مصر... فتجند باخوم وأخذ في إحدى الفرق لمحاربة والي الحبشة المتمرد...

مرت الكتيبة بمدينة لاتوبوليس[1]، حيث وصل الجنود في حالة إعياء شديد، فاستراحوا هناك....

وفيما هم على هذا الحال، إذ بجموع كثيرة من أهل المدينة تأتي إليهم بطعام وشراب والبشاشة على وجوههم...

بدأ باخوم الباحث عن الحق والمشتاق إلى الحياة الفضلى أن يتساءل: هل هؤلاء يعرفوننا؟!

لماذا كل هذا الاهتمام برضى وسرور بالغين؟!

كيف يتقدم هؤلاء الناس بالطعام والشراب بوفرة زائدة لمن لا يعرفونهم ولا ينتظرون منهم حتى كلمة شكر؟!

لماذا يترفق هؤلاء بنا ويحبوننا وهم يجهلوننا؟!

وجاءته الإجابة السريعة "أنهم مسيحيون. يفعلون هذا ليس من أجلنا، لكن حباً في إله السماء. ولا يقف فعلهم عند هذا الحد، بل شرع لهم مسيحهم عن محبة أعدائهم، ومباركة لاعنيهم، والإحسان إلى مبغضيهم، والصلاة لأجل الذين يسيئون إليهم ويطردونهم[٢].

تاقت نفس باخوم أن يعرف من هو هذا المسيح، فانفرد بأحد الرجال المسيحيين وبدأ يسأله عن مسيحه هذا...

بدأ الرجل ببشاشة وفي صراحة يعرفه الكثير عن الرب يسوع المسيح مخلص البشرية... أنه ابن الله، خالق الخضراء والغبراء وكل ما فيها، ما يرى وما لا يرى... محب البشر الذي تنازل من أجلنا ليدفع الدين نيابة عن البشرية كلها على الصليب، حاملاً آثامنا في جسده برضى وسرور مقدماً لنا ذاته حياة.

وجد باخوم الينبوع الذي يشبع نفسه العطشى، واكتشف محبة الله العجيبة المعلنة على الصليب... وبعدما استفسر عن الكثير مما يخالج نفسهن وامتلأت نفسه رجاء من جهة خلاصها... قرر أن يصير مسيحياً ويكرس حياته لخدمة البشر كما خدمه الرب وأحبه أولاً.

وفي مساء ذلك اليوم رفع باخوم يديه نحو السماء –كما يفعل المسيحيون– قائلاً:

---

(١) حاليا تدعى "إسنا" بمحافظة قنا.

(٢) مت٥:٤٤.

أيها الإله الحقيقي وحدك، خالق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها. اقبل عبدك الملتجئ إليك والمعترف بلاهوتك...

لا تغضب أيها الصالح علي..

أرشدني إليك لأني لم أعرفك...

أنظر إلي وخلصني.. وها أنا أتعبد لك كل أيام غربتي، وأصنع مشيئتك، وأخدم الجميع حسب وصيتك.

+ + +

سافر باخوم مع زملائه الوثنيين... وقلبه كله محترقاً بمحبة الإله.. وإذ رأى انهماك زملائه في الشرور، ورغبتهم الحارة في العصيان وعدم نظامهم... كانت نفسه تبكي في داخله "لماذا تترك هؤلاء في

جهلهم يا رب؟!"... كان قلبه يزداد حباً لهم، يشفق عليهم من أجل جهلهم بالحق ويترفق بهم دون أن يدينهم أو يحسب نفسه أفضل منهم.

سارت الفرقة إلى مدينة أنصنا... وهناك جاءهم النبأ التالي: أن الملك غلب أعداءه ويأمر بعودة الجنود وإعفائهم من الخدمة العسكرية.

أدرك باخوم أنها الساعة التي طالما ترقيتها نفسه في داخله منذ صبوته، لتنعتق من العبادة الوثنية ورذائلها، ليرتمي في أحضان الإله الصالح، محب البشر، غافر الخطايا، ومنقذ النفوس من الفساد....

لم يرجع باخوم إلى قريته، بل توجه إلى قرية "شينوفسكيا" أو "شاناسات"، قاصداً كنيستها. وهناك تقابل مع كاهنها وأخبره بكل مكنونات نفسه... وإذ رأى الكاهن صدق نيته، سجل اسمه في سجل الموعوظين، وصار يعلم باخوم الكثير عن المفاهيم المسيحية والحياة الجديدة.

تتلمذ باخوم على يدي هذا الكاهن، فكان يقضي الكثير من وقته معه، إذ كان شغوفاً نحو التعلم والتدرب على كل شيء في العبادة المسيحية... وفي تلك الفترة كان باخوم يقيم في أطلال معبد قديم شبه مهدم لسيرابيس...

ولما رأى الأب الكاهن أن يعمد باخوم، اعتمد باخوميوس على يد أنبا سرابيون أسقف دندرة.

وفي ليلة عماده رأى باخوم في نومه ندى يتساقط من السماء عليه، وصار في قوام قرص عسل في يده اليمين، ثم بدأ يتساقط على الأرض نقطاً متوتراً، وسمع صوتاً يقول له: يا باخوم. تفهم ما قد حدث. واحفظه في ذاكرتك، لأن تأويله تعرفه فيما بعد(١).

---

(١) جاء في كتاب "قديسو مصر" لشينو أن الصوت قال له "تأمل يا بني إلى هذا الندى" فأنه صورة باهتة للنعمة الموهوبة لك من الله.

ولما استيقظ من نومه، وجد نفسه مبتهجاً جداً، محترقاً بمحبة إلهه...

شعر بعشقه لإلهه... ولم يعرف ماذا يرد له من أجل كثرة حسناته.... إلا حياته! إنها لتقدمة جميلة وغالية في عيني الله!

ومنذ تلك اللحظة بدأ باخوم يغوص في لجة محبة الله منطلقاً في كل عمل صالح.. منتهزاً كل فرصة، ليعلن حبه لله.

+ + +

لقاء مع ناسك متوحد

لقد أنار الرب لباخوم الطريق، لأنه وإن عاش في بيئة وثنية فاسدة، لكنه امتاز بحبه لمعرفة الحق، هذا من جانب ومن جانب آخر انتهازه كل فرصة له لبنيان حياته...

وهذا هو سر نجاحه كل أيام حياته...

فكل فرصة يجدها الإنسان قادراً على التعرف على الحق أو العمل لبنيان نفسه... أن اغتنمها صارت حجراً قوياً يسنده خلال حياته... وان استهان بها ربما يبكي بدموع طالباً عودتها فلا يجدها.

لقد انتهز يعقوب فرصة واغتصب من عيسو باكوريته في لحظات... وكانت سر سعادته. واستهان بها عيسو في لحظات وطلب التوبة بدموع فلم يجدها!!

نقول كل صلاة مهما كانت قصيرة، وكل عمل خير مهما بدا صغيرا اصنعه ما دامت الفرصة سانحة... فأنك ستجني يوماً ما ثمار هذا الشوق لحياة البر... حتى وإن كنت الآن فاتراً، لأن الله ليس بظالم أن ينسى تعب المحبة، بل كأس ماء بارد لا يضيع أجره.

نعود مرة أخرى إلى قديسنا، نهاز الفرص.

لقد نال ما تاقت إليه نفسه، أن يعتمد باسم الثالوث الأقدس... لكن المعمودية بالنسبة له كانت فرصة... صار هيكلاً للروح القدس، وبالميرون سكن الروح فيه...

أحس بإمكانيات الله فيه، فانطلق باخوم بين القرى المجاورة يخدم الناس ويحبهم.. يساعد المساكين، ويتلهف على افتقاد الفقراء، يشارك الحزاني والمتضايقين آلامهم.

وإذ شعر الناس بالحب المتدفق فيه أحبوه، حتى بلغ بالكثيرين منهم أن تركوا قراهم وقطنوا القرية التي هو فيها... وعلى يديه تعرف كثيرون على الرب يسوع محب البشر.

ومن أعمال محبته، أن انتشر في القرية مرض جعل الكثيرين غير قادرين على العمل، فكان يجمع الحطب ويوزعه عليهم، وصار يخدمهم إلى أن رفع الرب المرض عنهم...

بقى باخوم على هذا الحال ثلاث سنوات، كان قلبه فيه يضطرم يوماً فيوم بنيران الحب الإلهي... وأخيراً لم يعد قادراً على البقاء في القرية، مشتاقاً أن تكون حياته كلها صلاة دائمة وعبادة مستمرة، مختلياً على الدوام بمن أحبه... وإذ سمع عن أبينا الناسك المتوحد "بلامون" الذي من بلدة "سنسيت" بإقليم أسوان... اغتنم الفرصة وأسرع إليه يتتلمذ على يديه.

ذهب باخوم إلى أبينا بلامون[1]، الذي كان يحيا في حياة عزلة شديدة. وكان شعره الطويل يتدلى على كتفيه تحت ثقل الشيخوخة، مرتدياً عباءة حقيرة على جسده المضني بسبب النسك والأصوام الكثيرة.

ولما بلغ إلى مغارته قرع الباب، فتطلع الشيخ من الكوة وقال له: من أنت أيها الأخ؟ وماذا تريد؟

أجاب باخوم: أنا أيها الأب المبارك، طلب السيد المسيح الإله الذي أنت تتعبد له. وأطلب من أبوتك أن تقبلني إليك، وتجعلني راهباً.

قال الشيخ: يا ابني. الرهبنة ليست بالأمر الهين، ولا يأتي إليها الإنسان كيفما اتفق. لأن كثيرين طلبوها، وتقدموا إليها وهم يجهلون أتعابها، ولما سلكوا فيها لم يستطيعوا الصبر عليها. وأنت قد سمعت عنها سماعاً لكنك لم تعرف جهادها.

واستطرد الأب يحدث باخوم عن متاعب الرهبنة وأثقالها بصورة شديدة، ومظهراً له محاربات الشيطان...

ازداد شوق باخوم للحياة الرهبانية، وتعلق قلبه بالأكثر عند سماعه أتعاب الرهبنة، عندئذ أجاب قائلاً: أيها الأب لا ترد وسيلتي ورغبتي، ولا تخمد نشاطي، بل اقبلني وأطل روحك علي، واختبرني، وبعد ذلك افعل بي ما يبدو لك.

طالبه الأب أن يذهب ويختبر نفسه بمفرده أولاً... وبعد ذلك يأتي وهو مستعد أن يساعده قدر ما يعطيه الرب من نعمة.

أما باخوم فإذ زاد قلبه شوقاً نحو حياة الرهبنة قال "ثقتي بالمسيح الإله أولاً، وبمؤازرة صلواتك، أنني أتقوى على جميع ما قلت، وأصبر معك إلى الموت".

فإذ عاين بلامون ثباته وعدم تراخيه، فتح له الباب وأدخله، فسجد باخوم وقبل يديه. وأخذ الأب يعظه ويعلمه عن إماتة الجسد وانسحاق القلب، ثم قال له:

"أن حفظت ما قلته لك ولم ترجع إلى الوراء، ولم تكن ذي قلبين، فأني أفرح بك...

أتظن يا ابني أننا نطلب مجداً بشرياً من جميع ما قلته لك من صلاة وسهر ونسك... الخ حاشا لنا! إنما أردت أن أعرفك عمل الخلاص، حتى تكون بغير عذر، لأنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت السموات....

والآن لعلك ترجع إلى مسكنك حتى تمتحن نفسك وتختبرها أياماً، فليس الذي تطلبه أمراً يسيراً".

---

(١) الوصف التالي للقديس بلامون مأخوذ عن "قديسو مصر" لشينو".

عندئذ أجابه باخوم "لقد انتهيت من اختبار نفسي في كل شيء، وأنني أرجو بمعونة الله وبصلواتك المقدسة أن يستريح قلبك من جهتي".

قال له الشيخ"حسنا". وقبله فرحاً ثم تركه عنده ثلاثة شهور مختبراً محبته وصبره وجهاده وصدق نيته، وبعد ذلك أخذ يصلي عليه الليل كله، ثم قص شعره، وألبسه إسكيم الرهبنة في النهار، وسكنا معاً كما لو كان شخصاً واحداً.

+ + +

هكذا كان مسلك آبائنا تجاه راغبي الرهبنة، بل وداخلي الإيمان المسيحي.... يظهرون لهم حقيقة الأمر: الباب ضيق والطريق كرب، فيه آلام وأحزان وحرمان وصلب وموت... فأن قبل آزروه بصلواتهم وإرشاداتهم ليذوق ويختبر حلاوة هذا الطريق، وعذوبة الألم مع الرب المتألم...

+ + +

نعود إلى أبينا باخوم الساكن مع أبيه بلامون، فقد تتلمذ على يدي هذا الناسك سبع سنوات، متدرباً خلالها على حياة الشركة مع الرب، نامياً في حياة النسك الحقيقية... وفيما يلي جوانب من تلك الحياة التي عاشاها.

لقد امتازت حياتهما بالجهاد والنسك الشديد مع التسليم الكامل في يدي النعمة الإلهية. وقد جاء عنهما أن الأب أراد يوماً أن يختبر ابنه، ففي المساء بعدما أكلا خبزهما القليل، قال لابنه: بل لنا حلفاء وخوصاً وليفاً قدر ما يكفينا الليل جميعه لأن هذا هو القانون: أن نسهر الليلة حتى الصباح. أطاع باخوم أباه، وبل الحلفاء والخوص والليف، ثم وقفا يصليان ساهرين مسبحين الله، ثم أخذا يعملان بأيديهما بغير تهاون. وإذ ثقل النوم عليهما أبدلا العمل اليدوي بآخر. ومتى أتعبهما النوم خرجا إلى الجبل وأخذا ينقلان الرمال من موضع إلى آخر حتى يتعب جسداهما، فيستيقظا للصلاة. ومتى رأى الأب النوم يغالب ابنه كان يقول له: استيقظ باخوم لئلا يجربك الشيطان، فقد مات كثيرون من كثرة النوم.

فلما رأى أن باخوم سهر حتى صلاة باكر، فرح لطاعته ونموه.

قيل أيضاً أنه في أحد أعياد الفصح (عيد القيامة) قال الأب لابنه: إذا كان هذا اليوم يوماً شريفاً. وهو أكبر أعياد المسيحيين، فانهض أعد لنا ما نغتذي به. فأطاع باخوميوس معلمه كعادته. فسحق ملحاً وصب عليه زيتاً وجمع من نبات الأرض خضرة يسيرة وأحضر خبزاً، وطلب من أبيه أن يتفضل ليأكل. وإذ وجد الزيت كثيراً.... بكى الأب في مرارة قائلاً: الرب لأجلي صلب، وأنا أأكل زيتاً، هذا الذي ينعم الجسد؟!

وفي اليوم التالي اعتذر باخوم له بأن الزيت انسكب بفيض عن غير إرادته، طالباً منه السماح. فأجابه: الرب يعرف، لولا ضرورة سراج المذبح، ومن أجل عمل الشغل أيضاً لم أكن أترك هذا الصنف –الذي هو الزيت– في المسكن.

أجابه باخوم "اغفر لي فقد أخطأت".

ثم قاما وأكلا خبزهما القليل وهما باكيان.

هكذا كانت حياة النساك، ربما يبدو فيها شيء من القسوة، لكن إذ قد تدربوا بنعمة الرب سنوات طويلة وتحت قيادة أب اعتراف مختبر... فأن ما هو بالنسبة لنا قد لا يناسبنا بل ويضرنا إن سلكنا به بغير تمييز أو حكمة... هو في نفس الوقت بالنسبة لهم نافع ومفيد.

حياتهم ليس كما يظن البعض مجرد تدرب على الحرمان والزهد، إنما يمتزج هذا بعشق إلهي، وذوبان للقلب في محبة الله بصورة أعمق فأعمق... حتى يصير الجسد بالنسبة لهم كلا شيء.

هذه الحياة النسكية صعبة بالنسبة لكثيرين، من يحاول الاقتداء بها بغير تمييز يسقط ويفشل ويبأس وغالباً ما ينحرف حتى عن الإيمان... وهي أيضاً ليست مناسبة للجميع... الأمر الذي كان يشغل أفكار باخوميوس باستمرار. أنه يحب أن يتمتع الكل بهذه الحياة التأملية المملوءة حلاوة وعذوبة لكنها ليست طريق الجميع!!

مع ملاك الرب

اعتاد باخوم أن يذهب إلى مغارة خربة مملوءة حطباً وأشواكاً، يحضر منها الحطب...

أنها بالنسبة له فرصة رائعة، يخرج فيها من المغارة رافعاً أنظاره نحو المصلوب محدثاً إياه... وإذ يبلغ مغارة الحطب يأخذ فيها جانباً ليركع مناجياً ذاك الذي أحبه...

كم سكب دموع الحب مناجياً ذاك الذي بذل ذاته عنا... وكم وقف صامتاً يصرخ إلى سيده بغير كلام ولا حركة لشفتيه... أنها صرخات القلب النابض الذي غرق في نيران حب الله...

كم من دموع سكبها أيضاً من أجل الساقطين والتائهين والضالين...

كم تاقت نفسه أن يكون لكل البشرية تلك الفرص التي له تعشق حبيبها وتناجيه... ولكن إذ يرى طريق الرهبنة –نظام الوحدة– صعباً وقاسياً يبكي من أجل غير القادرين.

هكذا كان يقضي وقته في مغارة الحب مناجياً ذاك الذي بذل ذاته عنا... وأحياناً عندما كان يجمع الحطب كان إذا ما دخلت شوكة في رجله... يتأمل في شوكة الخطية كيف تألم بسببها الرب وكسر سلطانها!...

وفي يوم إذ كان باخوميوس يمشي قرب القرية الخربة التي تدعى Tabenna أو طبانسيين (بالقبطية) أي نخل إزيس وهي مواجهة لدندرة، يجمع حطباً، غارقاً في تأملاته إذا ملاك الرب يظهر له ويحقق له أمنيته التي طالما تلهفت نفسه إليها ولم يكن يظن أنها ستتحقق على يديه... طالباً منه أن يبني ديراً، مخبراً إياه بأن كثيرين سيجتمعون حوله، وأرشده إلى خضوعهم لقانون منتظم، وأعطاه لوحاً نحاسياً به الوصايا[1] التي يلزم على الأخوة أن يسلكوا بها.. وهي وصايا سهلة يستطيع الرجل العادي أن ينفذها بنعمة الرب.

رجع باخوم إلى أبيه وأخبره بما رآه وتوسل إليه أن يذهب معه إلى طبانسيين لتنفيذ الإرادة الإلهية. فلما سمع الشيخ بذلك حزن لمفارقته جداً، وقال له "كيف بع سبع سنوات، وأنت عاكف معي بطاعة وخضوع تفارقني عند كبري. وأنا أرى وجودي معك أهون علي من مفارقتك؟!" لذلك قرر للحال أن يذهب مع ابنه ويساعده في بداية هذا النظام، ويسكن معه....

عجيب هو هذا الرجل المسن! يؤمن بوحدة الكنيسة رغم اختلاف عمل الأعضاء وتباين مواهبهم!... وهو شيخ مسن يقبل أن يترك ابنه يبني ديراً، بل ويساعده ويشجعه عليه، مع أنه لم يكن قد سمع من قبل عن نظام الشركة في الرهبنة!

---

(١) سنعود إليها فيما بعد إن شاء الرب وعشنا.

أنه لم يحقر من نظام الشركة... لكن وإن كان هذا النظام لا يوافقه هو كناسك متوحد، لذلك بعد فترة من الزمن عاد ليقول لابنه "اعلم أيها الابن المحبوب إلي... إن نفسي تنازعني بالعودة إلى قلايتي ومكان توحدي. وقد علمت أن الله قلدك بنيان هذا الدير، وأنه سينمو ويمتلئ بالناس المرضيين لله. وأنت عتيد أن تستمد من الله قوة وطول أناة في رعايتهم...

أما أنا فقد طعنت في السن، وضعفت قوتي، وقد آن وقت رحيلي، وأرى أن توحدي أوفق لي، لذلك ألتمس بنوتك وأطلب من إخلاص محبتك ألا تحرمني رؤياك بين حين وآخر. أنت تزورني مرة وأنا أزورك مرة وأنا أزورك أخرى، في هذه الأيام اليسيرة التي تبقت لي".

وقد تم هذا التعاقد، إلا أن الزيارات لم تدم كثيراً، إذ شاخ الأب جداً. وبدأ جسده يضعف، وانتابته آلام كثيرة أقعدته... الأمر الذي جعل باخوم يكثر الزيارة لخدمته.

وفي مرضه لم يكف عن نسكه... وإذ اشتد به المرض جاء تلاميذه[1] ورؤساء آخرين من أماكن بعيدة يفتقدونه، وقد كان معهم طبيب حاذق... كشف عليه فلم يجد به مرضاً إنما أن يخفف من نسكه...

وتحت إلحاح الأخوة والرؤساء بدأ يخفف من نسكه الزائد لكنه لم يشفى، فعاد إلى نسكه، فوهبه الرب الشفاء.

وبعد شهر من شفائه تنيح الآب بلامون الناسك، فأسرع إليه باخوميوس، وجاءه بقية تلاميذه وكانوا يقبلون قدميه...

كانت ليلة حافلة، اجتمع فيها رجال الصلاة، وكانوا يصلون بالمزامير ويقرأون الكتب المقدسة الليل كله، وفي الصباح أقاموا قداساً إلهياً، ثم حملوا جسد القديس بلامون إلى الجبل ودفنوه بعد تكفينه، وصلوا عليه ثم عاد كل واحد منهم إلى مسكنه....

وكان كثيرون يرددون هذا القول أنهم قد صاروا في يتم عظيم!

عاد باخوم إلى ديره، لكن إله التعزية، عزى باخوم بأن أرسل إليه أخاه يوحنا، لأنه لم يكن قد شاهد أحداً من أقربائه منذ ترك قريته. ففرح باخوم بأخيه لأنه اعتنق المسيحية وعشق الحياة الرهبانية.

+ + +

---

(١) كان له تلاميذ متوحدون يعيشون في مغارات متباعدة.

٢

في داخل الدير

اتضاعـــــه

الإنسان الذي يعرف الرب يسوع ويحيا بروحه القدوس، يسلك بروح الرب المحب... فيقتدي بالرب الذي في أتضاع حقيقي نزل ليموت من أجل الخطاة، وانحنى متزراً بمئزره ليغسل أقدام ذاك الخائن الذي يسلمه بثمن عبد!

هذا هو الاتضاع الحقيقي... أن يختفي الإنسان وراء الرب يسوع، ليحيا في قوة وبسلطان الرب قادراً على كل عمل صالح، باذلاً كل شيء، محباً للجميع، مترفقاً بالكل... لأنه يعمل بالرب يسوع المتضع.

هذا هو الإتضاع الحقيقي.... إنه الأساس الذي عليه يقوم بنيان العبادة... وبدون يفقد الإنسان كل شيء!

لقد سئل باخوم مرة: قل لنا منظراً من المناظر لنستفيد منها تخشعاً وإيقاظاً؟

أجاب: "إن من كان مثلي سقيماً وخاطئاً أثيماً لن يعطي المناظر الروحية والإستعلانات الإلهية. ولا يتجاسر أحد على طلب هذا من الله "لئلا يكون مخالفاً لإرادته، ومن توقح وطلب ذلك فهو من الجهلاء الضالين. بل إن شئت أن ترى منظراً إلهياً، وتشاهد أمراً بهياً يفيدك من المنافع أكبرها، ومن المكاسب أكثرها فأنا أدلك: وهو متى رأيت شخصاً ورعاً متضع القلب طاهراً. فهذا أعظم من سائر المناظر.. لأنك تشاهد الله غير المنظور في هذا المنظور. فمن أفضل من هذا المنظر لا تسأل...".

وقد ترجم أتضاع باخوم إلى تطبيقات عملية كان يحيا بها ويطالب أولاده الرهبان أن يسلكوا بها منها:

١- عدم اشتهائه صنع المعجزات.

٢- عدم تمييز نفسه عن أولاده.

٣- خدمته لأولاده.

٤- عدم قبوله أي رتبة كهنوتية.

+ + +

١- <u>عدم اشتهائه صنع المعجزات:</u>

أخذ باخوم هذا الأمر عن أبيه بلامون، فقد حدث أنهما بينما كانا في إحدى ليالي الشتاء خارج المغارة وأمامها نار متقدة جاءهما راهب متكبر وقال لهما أن كان أحدهما يؤمن إيماناً حقيقياً فليقف فوق الجمر ويتلو الصلاة الربانية. فلما سمع الأب بلامون هذا زجره قائلاً "ملعون هو ذلك الشيطان النجس الذي ألقى هذا الفكر الفارغ في قلبك، فكف عن هذا، لأنه من شيطان العجب". فلم يبال الراهب بكلام أبينا. بل تقدم ووقف على الجمر وتلا الصلاة الربانية بكل ترو. وخرج من النار دون أن يلحقه أي أثر من النار. ثم عاد إلى مسكنه في عجرفة.

وبعد أن تركهما الراهب، قال قديسنا لأبيه "يعلم الرب، إني عجبت من ذلك الأخ الذي وقف على النار ولم تكتوي قدماه".

أجابه الشيخ "لا تعجب يا بني من هذا، لأنه بلا شك من عمل الشيطان، وإذ لم يتضع بقلبه سمح الله ألا تحترق قدماه، كما هو مكتوب أن الله يرسل لذوي الاعوجاج طرقاً معوجة. ولو علمت يا ابني ما ينتهي إليه أمره، لكنت تبكي على شقائه".

أما عن الراهب المتكبر، فإذ رأى الشيطان أنه انخدع، ظهر له بعد أيام في شكل إمرأة جميلة جداً ومتزينة بثياب فاخرة، جاءته ليلاً وقرعت بابه طالبة أن يأويها يوماً أو يومين بحجة أنها فقيرة وعليها دين وأصحاب الدين يطالبونها وهي عاجزة عن أن تفي به. وبسبب عدم نقاوة قلبه أدخلها... وبدأ الشيطان يلقي بسهامه في قلبه حتى اشتاق إلى صنع الشر معها، وإذ حاول ذلك صرعه الشيطان للحال وألقاه على الأرض وبقى هكذا كالميت يوماً وليلة... ثم قام وأسرع إلى أبينا بلامون وسجد بين يديه بدموع مرة طالباً أن يصلي عنه، نادماً على عدم طاعته له.. وصار القديس وتلميذه باخوميوس يصليان بدموع لأجله...

وما قد حدث، هذا حدث مرة أخرى مع باخوميوس وتلاميذه... فقد سمع جماعة من الرهبان الهراطقة بسيرتهن فأرسلوا إليه بعضهم لابسين جلوداً، الذين التقوا بأولاد باخوميوس وقالوا لهم "إن كبيرنا مقدونيوس قد أرسلنا إلى ابيكم قائلاً: إن كنت رجل الله حقاً، وما سمعناه عنك صحيحاً، فتعال نعبر أنا وأنت النهر ماشيين بأرجلنا على سطح الماء، فيعرف كل واحد عملياً من منا له دالة عند الله".

فلما سمع الأخوة بذلك أخبروا أباهم بالقول. أما هو فقال لهم لماذا سمحوا لأنفسهم أن يسمعوا مثل هذا القول، لأن مثل هذه الأمور لا ترضي الله، وهي لا تتناسب مع سيرتهم...
سألوه: وهل يتجاسر هرطوقي بعيد عن الله أن يستدعيك لمثل هذا العمل؟!

أجابهم: قد يمكن لهرطوقي أن يعبر النهر كعبوره على أرض يابسة، بمظافرة الشيطان له، وبسماح من الله... لذلك امضوا وقولوا لهؤلاء المخدوعين "هكذا قال عبد الله باخوميوس أن حرصي واجتهادي لا أن أعبر على سطح ماء النهر ماشياً، بل كيف يمكنني أن أفلت من حكم الله وقصاصه...

وبقوله هذا اقتنع الأخوة بعدم افتخارهم بأعمالهم وعدم اشتهائهم صنع العجزات. إذ هي لا تشغل أذهان المؤمنين، إنما ترتفع أنظارهم دوماً إلى تلك المعجزة الخالدة "ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل" إش٧:١٤. وعندما طلب الناس من الرب معجزة رفع أنظارهم إلى موته ودفنه وقيامته (مت١٢،٤٠:٣٩)... ففي هذا الفداء يكمن الحب الإلهي العجيب... معجزة المعجزات الأبدية.

من أجل هذا نحتاج كمؤمنين إلى روح التمييز غير طالبين معجزة أكثر من أن يكون لنا نصيب مع الرب في الحياة الأبدية، لئلا تصير لنا شهوة صنع المعجزات فخاً يستخدمه الشيطان ويضللنا خلاله[1].

٢- عدم تمييز نفسه عن أولاده

لقد كان لباخوميوس مكانته في قلوب أولاده الذين في الأديرة الباخومية جميعها، وهي حوالي عشرة أديرة، وإذ كان يعمل بروح الرب كان خادماً للجميع لا يميز نفسه عن أحد منهم بحجة أنه الرئيس الأعلى للأديرة والمسئول عن تدبير جميعها وتنظيمها... لكنه في أبوة متضعة كان يخضع للكل، يود أن يخدم الجميع. فقد قيل عنه أنه مضى يوماً لقضاء أمر ما، وكان على كل راهب أن يحمل بعض الخبز، فقال له شاب "حاشاك أن تحمل شيئاً يا أبانا. هوذا قد حملت كفافي وكفافك".

أجابه الآب: لا يكن هذا. أن كان مكتوب عن الرب أنه يليق به أن يتشبه بأخوته في كل شيء. فأنا الحقير كيف أميز نفسي عن أخوتي ولا أحمل حملي مثلهم؟! من أجل هذا كانت بعض الأديرة في انحلال لأن صغارهم مستعبدون لكبارهم، فلا يجوز أن يحدث هذا. لأنه مكتوب من أراد أن يكون عظيماً فليكن لكم خادماً.

(١) راجع كتيب "يسوع والمفلوجان" ص٣-٣١.، كتاب "الحب الإلهي" الباب السابع (الله مقدسي) ص٩٧١-٩٩٦.

٣- خدمته لأولاده

لقد تعرف باخوم على الرب يسوع خلال خدمة أهل أسنا له دون أن يعرفوه، لهذا بعد عودته كان يعمل بكل طاقاته التي وهبه الرب إياها لخدمة الناس... وهكذا كان أيضاً مع أبيه بلامون خلال سكناه معه... وبنفس الروح أيضاً مع أولاده في الأديرة.

عندما أنشأ ديره الأول كان يقوم بجميع الخدمات بنفسه كالعمل في البستان وإعداد الطعام وخدمة المرضى وحراسة الباب..الخ ولما تزايد عدد الرهبان وزعت الأعمال.

وكان باخوم – وهو الرئيس العام لجميع الأديرة – يخشى لئلا يخدمه الرهبان خدمة خاصة بسبب مركزه. فقد جاء عنه أنه مرض يوماً فأخذه تادرس تلميذه إلى المكان الخاص بالمرضى في الدير. وقد اهتم به الخادم المسئول عن الطعام. فقدم له "سليقاً". ذاقه الآب فوجده جيداً، فقال "ألا تعرفون كيف تطبخون طعاماً؟! احضروا إلى قليل ماء". فلما أحضروا له الماء سكبه في الإناء حتى امتلأ، ففسد الطعام، وعندئذ أكل الأب منه. وبعد انتهائه من الأكل، سكب تادرس على يديه ماءً ليغسلهما، فرش الأب الماء على قدمي تلميذه كمثل من يرغب في غسلهما.

تعجب تادرس من تصرفاته، إذ أفسد الطعام بسكب الماء عليه، ورش قدميه بالماء عندما كان يغسل يديه. لذلك سأله قائلاً: ما هذا الذي فعلت؟... فأجابه: في جميع زمانك، في كل شيء تصنعه، احفظ نفسك من المجرب لكي لا يخسرك حياتك. لأن الأخ الذي أعد لي الطعام، أعده لي إعداداً جيداً بنشاط، وهذا لا يدوم مع الإنسان. فقلت لئلا أكل أكلاً طيباً هذه الدفعة، ويأتي الغد وأنا مريض فأنتظر أن يعد لي طعاماً جيداً، فأن حدث أنه توانى يوماً ما لا يؤثر هذا على....

وسأله تادرس بخصوص رش الماء فأجابه بأنه يخشى من أن يعطي حساباً عن كل شيء فلا يريد أن يكون مخدوماً، يغسلون يديه، بل يريد هو أن يغسل أقدام تلاميذه...

٤- عدم قبوله رتباً كهنوتية:

كانت أديرة باخوميوس قريبة من الريف، لذلك كان يستدعي الكهنة لخدمة القداس، رافضاً أن يرسم أحد أولاده كاهناً... حتى لا يتسرب بين الرهبان – عبر الأجيال – حب الرئاسة وأخذ الرتبة الكهنوتية.

وقد جاء عنه أنه في بداية نظام الشركة، رأى كثيرين يلتفون حوله، وكثيرين يقطنون في القرية المجاورة، فذهب هو والأخوة الذين معه وبنوا لهم كنيسة. وكان يهتم بقرابينهم. وكان يذهب مع أولاده الرهبان إلى كنيسة القرية هذه، حتى بلغ عدد الرهبان حوالي مائة راهب فبنوا كنيسة في الدير. ومع هذا كان يهتم بكنيسة القرية... دون أن يقبل رسامة راهب كاهناً.... ولما سئل عن سبب ذلك قال "خير لنا أن لا نطلب أمراً كهذا، لئلا يصير بين الرهبان – بسبب هذا – ناراً، إذا ألقيت في الجرن تبدد تعب السنة كلها ما لم يسرعوا ويطفئوها....

وكان إذ جاءه كاهن يطلب الرهبنة، فأنه يقبله إن رآه مستقيماً ويجعله راهباً، ويخضع بطيب قلب لقوانين الرهبنة كغيره بلا تمييز.

ورفض قديسنا رسامته كاهناً، لأنه إذ أراد أثناسيوس الرسولي أن يفتقد شعبه في الصعيد، ذهب إلى طبانسين (التابعة لأبروشية دندرة) حيث كان أبونا يقيم هناك، فخرج باخوميوس وأولاده للقاء أبيهم البطريرك، وهم فرحون متهللون بزيارته. دخل البابا فجمعالرهبان وصلى هناك ثم زار مساكنهم. ثم تقدم القديس أنبا سرابيون أسقف دندرة إلى البابا، وتحدث معه عن رجل الله باخوميوس، طالباً منه أن يرسمه قساً مدبراً لجميع الأديرة المودودة في تلك المنطقة. فأجابه البابا: لقد سمعت عن إيمان الأب باخوميوس الذي تحدثني عنه وأنا في الصعيد قبل أن يكون بطريركاً.

ولما سمع باخوميوس بما دار بين البابا والأسقف اختفى. فلما علم البابا بذلك قال لأولاده: سلموا على أبيكم وقولوا له إنك وإن كنت قد هربت من العظمة الفارغة الوقتية، التي بسببها تكون الغيرة والحزن والحسد، واخترت لك العلو الفاضل الدائم إلى الأبد مع المسيح، يعطيك الرب مثل قلبك. وإن كنت قد هربت من العظمة الوقتية الفانية، والآن لست أنت لا تشاء أن يكون لك هذا الأمر، بل وأنا أيضاً لا أمد يدي وأغضب رئاستك ولا أكلمك في هذا ألمر، بل بمشيئة الله إذا عدت فأكون مستحقاً أن أرى محبتك للإله.

ثم خرج البابا ومعه الأساقفة والجموع تحمل المسارج الموقدة. وإذ تأكد باخوميوس من خروج البابا من طبانسين، خرج من مخبأه.

وعند رجوع البابا بسفينته بالنيل قابله الأب لنوال البركة، لأنه كان يجله لكونه ولي الله وخادمه، كما كان يقدس مواقفه في نصرة الحق ورفع لواء الإيمان المستقيم، وصبره على احتماله الآلام بسبب الأريوسية.

+ + +

هذه جوانب تكشف لنا حب باخوميوس لحياة الأتضاع، الأمر الذي جعل الشياطين تتكاتف ضده وتظهر مراراً في شكل خدم وحشم، في شكل صفوف تحيط به من كل جانب، وهي تقول أنه يلزم أن نكرمه ونبجله إذ هو ولي الله، فكان يحقر نفسه متذكراً آثامه وخطاياه، وكان يقول لهم "لقد علت آثامي على رأسي، وقد وجب علي البكاء الكثير والنحيب، فحسبي مصابي ولا أحتاج إلى تلفيق كذبكم وخديعة بهرجتكم الناجمة عنها هلاك النفوس، فاذهبوا عني إلى النار المعدة لكم".

+ + +

صلاتــه

أحب باخوم إلهه وعشق العشرة معه، فمنذ وجوده مع أبيه بلامون، كان يخرج إلى المقابر في وحدة يختلي مع الرب.... وكان في صلواته الطويلة يتصبب عرقه. ويقال عنه أنه إذا وقف للصلا٠ يبسط يديه نحو السماء ولا يردها إلا بعد مدة طويلة بغير حركة، حتى يخيل للناظر إليه أنهما مسمرتان على الصليب.

وكانت الشياطين تحسده بسبب كثرة صلواته... وإذ كان تارة يحني ركبتيه للسجود ظهروا له في شكل جب حتى يخاف من السقوط، أما هو فبنعمة الله تشجع وتمم سجوده بغير خوف أو جزع.

ومرة أخرى بينما هو يصلي أحدثوا أصواتاً تشبه الزلزال... أما هو فلم يبال، بل لبث مصلياً قائلاً "الله لنا ملجأ وقوة. عوناً في الضيقات وجد شديداً. لذلك لا نخشى ولو تزحزحت الأرض ولو انقلبت الجبال إلى قلب البحار" مز٤٦،٢:١.

وامتازت صلواته بالحب الفياض تجاه جميع البشرية، طالباً خلاص نفوس الكل.

وكثيراً ما كان يبكي بدموع غزيرة وخاصة من أجل أي نفس تنحرف عن الحق. وقد جاء عنه أنه رأى رؤيا بأن بعض الرهبان سيسقطون، فقام باكياً بمرارة وأخبر تلميذه تادرس بذلك فشاركه في البكاء ممتنعاً عن الطعام. ولما رآه الأخوة على هذا الحال طلبوا من باخوميوس أن يسكت ابنه، أما هو فقال لهم "اتركوه يبكي".

وفي إحدى الليالي، إذ عبر باخوميوس ومعه تادرس تلميذه على مقابر، وجدا نسوة ينحن ويبكين، فتأثر باخوميوس لهذا المنظر، مشتاقاً لو بكى الكل على خطاياهم حتى يقومون لذلك قال لتلميذه: أما ترى هؤلاء كيف يسكبن دموعهن على أموات ليس لهن قدرة على إقامتهم، فكم يلزمنا نحن المدعوين رهباناً أن نندب أنفسنا الميتة بزلاتها، لكي يقيمها السيد المسيح ويحييها برحمته!!

على كل حال البكاء ممدوح إن كان بقصد صالح. كما كان يفعل سائر الآباء القديسين. فداود النبي يقول "أعوم كل ليلة سريري بدموعي أذوب فراشي" مز٦:٦، "عند المساء يحل البكاء وفي الصباح

الترنم" مز ٥:٣٠ فعنى بالمساء هذا العالم، والصباح العالم الآتي. ويوسف بكى أخوته... وناح أرميا النبي نادباً شعبه... الخ.

نسكه وتقشفه

النسك أو التقشف أو الزهد في مفاهيم آبائنا القديسين الأولين ليس مجرد امتناع وحرمان وتخلي قدر ما هو اغتصاب الحب الإلهي وهيام روحي وعشق سماوي...

نسمع الكثير عن جهاد آبائنا وما بلغوه من تقشف زائد، أحياناً يفوق حد التصور، لكن من يتتبع سيرة القديس باخوميوس وغيره من القديسين يدرك أن هذا الجانب السلبي من الزهد ليس له قيمة في حياتهم ما لم ترافقه لذة الشركة مع الرب يسوع.

هذا مع مراعاة أن ما يسرده لنا التاريخ أو يرويه لنا القصاص يلمس الجانب الخارجي للعبادة، ونادراً ما يستطيع الكاتب أن يسجل دوافع القديس في عبادته، لأنها دوافع سرية يحرص كل قديس على إخفائها ليكون مجده في الداخل سرياً مع إلهه.

كذلك ما نتكلم عنه من جهة نسك القديس وتقشفه، إنما نذكر ما وصل إلينا عن ما بلغه بعد جهاد طويل، وفي تدرج وتدرب حكيم تحت رعاية الروح القدس بإرشاد أب اعترافه... هذا التدرج لم يسجله لنا أحد، لأنه لم يدركه إلا القديس نفسه مع أب اعترافه... وفيما يلي ما وصل إلينا عن حياة باخوم النسكية...

قيل عنه أنه كان يديم الصلاة بنسك وسهر كثير، حتى أنه إذا ما أراد أن ينام لا ينام ممتداً... بل يجلس على كرسي منفرد... وفي مرات كثيرة كان يسهر حتى الصباح.

وكان إذا مضى إلى مكان خارج الدير مع الأخوة واضطر إلى المبيت، كان يطلب منهم أن يحفر كل منهم حفرة في الأرض مثل مراقدهم مظهراً لهم ضرورة التعب، قائلاً لهم أن روح الزنى يهاجم الإنسان بشدة ولا سيما إذا نام ممتداً براحة.

وفي أحد الأيام. إذا كان مسافراً مع أخوين في مركب صغير لافتقاد الأخوة في "أتموشيس" قدم له الأخوان في المساء خبزاً وجبناً وزيتوناً وتيناً، وصار يأكلان بشراهة. أما هو فكان يأكل الخبز وعيناه تدمعان... وإذ ألح عليه الأخوان عن سبب تصرفه هذا قال: أما بكائي فهو لأجلكما، إذ لا تمسكان شهوتكما، وذلك لأن خوف الله ليس فيكما، تأكلان بغير حشمة من كل شيء أمامكما. لأن من كان يجاهد من أجل السماويات يلزمه أن يتنسك في الزمنيات كقول الرسول.

فقالا له "أفأكلنا الآن مما هو أمامنا خطية؟".

أجابهما: ليس في الأكل خطية، خاصة ما كان متيسراً. بل كثرة الأكل تعدم الفضيلة... إذ يقول مخلصنا أن الطريق المؤدي إلى الحياة ضيق، ويقول الرسول أن كل الأشياء تحل لي ولكن ليس كل الأشياء توافق... أما أنا فإنسان خاطئ اكتفى بالخبز والماء، لا سيما وأنا خارج بيتي، فإذا عدت إلى ديري تساويت بأخوتي...

أن الأكل بقدر ليس خطية. إنما هزيمة الرهبان هي أن تسود عليهم الحنجرة ويتعبدوا للشهوة. واختتم حديثه ألا يكتفي الإنسان بنسك الجسد إنما أن يقتني داخله خوف الله.

وعلى الرغم مما بلغ إليه قديسنا من تقشف إلا أنه كان يتطلع إليه كوسيلة لا غاية في ذاته، فلا عجب أن رأيناه يمنع بعض تلاميذه من بعض النسكيات، إن رأى وراء النسك خسارة... كمن يتنسك لأجل المجد الباطل، أو ما يتنسك حتى يعجز عن الصلاة...

فقد حدث أن أحد النساك مرض أثناء أسبوع البصخة، فلم يقبل أن يأكل قائلاً "جيد لي أن أموت أفضل من أن أكل وأشرب في هذه الأيام. فلما علم الأب بأمره ذهب إليه وقال له: أن كل الأيام هي لله، لأن الذي أمر بعمل البصخة هو الذي سمح لك بالمرض. فلا تخف، ولا تحسب عليك خطية إذا أكلت بسبب المرض. لأنه مكتوب في سفر العدد بأنه إذا لم يستطع أحد أن يقدم قربانه في الشهر الأول فليقدمه في الشهر الثاني. فإذا لم تستطع أن تصوم البصخة بسبب المرض، يمكنك بعدما تستريح أن شاء الله تصومها...".

وحدث أيضاً أنه شعر الأب بمرض شديد حتى قارب الموت، فحملوه إلى الموضع الخاص بالمرضى ليأكل بقولاً أو سلائق، وكان بالموضع أخ مريض مرضاً شديداً حتى لصق جلده بعظامه وقد طال به المرض فطلب لحماً فلم يقبلوا... وإذ سمع الأب بهذا تنهد قائلاً: ترى أين خوف الله القائل أن تحب قريبك كنفسك، ألا ترون أنه قارب الموت فكيف لا تعطون سؤاله؟!... أليس كل شيء طاهراً للطاهرين؟!... وإذ سمعوا هذا اشتروا جدياً صغيراً وطبخوه ثم قدموه له، وقدموا حساء لباخوميوس فأكل بشكر.

طاعته

المؤمن الحقيقي في حبه للرب تموت ذاته ليحيا مطيعاً للرب، وأبيه الروحي وأخوته في الرب، لذا كان باخوم مطيعاً لأبيه بلامون وخاضعاً لقوانين الرهبنة كواحد من الرهبان، والعجيب أنه وهو الرئيس العام لجميع الأديرة الباخومية في منطقته، إلا أنه كثيراً ما كان يدرب نفسه على طاعة أولاده.

فقد جاء عنه أنه كان له لباس خاص يلبسه ليلاً في الشتاء من البرد، دون أن يضع عليه غطاء، وكان يقابل به الأخوة والكهنة الغرباء. فلما رأى الأنبا تناسيه أن اللباس غير لائق طلب من تادرس أن يأخذ منه اللباس الحقير ويعطيه آخر يليق به... فوافق تادرس على ذلك، فأخذ اللباس الحقير ووضع عوضه رداء آخر. وإذ جاء المساء لم يجد الأب لباسه، فسأل تادرس عنه، فقال له أن يأخذ الآخر عوضاً عنه. فقال له الأب "يا ساذج أعطني ثوبي". فأجابه تادرس أن يأخذ الآخر. فكرر الأب قوله مرة ثالثة، وإذ كان الجو بارداً ولم يلبس الأب الثوب الآخر، تأثر تادرس حتى جرت دموعه من عينيه مخبراً أباه بالأمر.

فلم ينته الأمر عند هذا الحد، لأنه وإن كان لا يرغب في الثوب الجديد تقشفاً، لكنه يلزمه أن يطيع تلميذه لأنه هو الموكل بهذه الخدمة...

وجاء أيضاً عنه أنه في أحد الأيام ذهب إلى دير طبانسين، وكان تادرس قد أمر الأخوة أن يصنعوا حبال (المسدية) بطريقة تختلف عن الطريقة القديمة. فلما وصل الأب إلى الدير، جلس على حصيرة وبدأ ينسج بالطريقة القديمة، فمر به راهب شاب حديث في الرهبنة، فوجد الأب يضفر بطريقة غير التي علمه إياها تادرس، فقال له دون أن يعرفه "ليس العمل كذا أيها الأب، لأن أبانا تادرس علمنا طريقة أخرى". فأجابه الأب فرحاً "كيف يجب أن أعملها يا ابني". ثم نهض لوقته وقال له "اجلس أرني المثال لكي أتعلم". ثم بدأ الأب يعمل بالطريقة الجديدة فرحاً لأنه صار تحت التعليم...

+ + +

تدقيقه في الكلام

اللسان الذي صار ملكاً للرب يسوع، يلزم ألا يستخدم إلا فيما هو للبنيان...

ويركز الرسول يعقوب على أهمية تقديس اللسان إذ يقول "إن كان أحد لا يعثر في الكلام فذاك رجل كامل قادر أن يلجم كل الجسد أيضاً. هوذا الخيل تضع اللجم في أفواهها لكي تطاوعنا فندير جسمها كله.

هوذا السفن أيضاً وهي عظيمة بهذا المقدار وتسوقها رياح عاصفة تديرها دفة صغيرة جداً إلى حيثما شاء قصد المدير.

هكذا اللسان أيضاً هو عضو صغير ويفتخر متعاظماً.

هوذا نار قليلة أي وقود تحرق.

فاللسان نار عالم الإثم. هكذا جعل في أعضائنا اللسان الذي يدنس الجسم كله... يع٣.

لذا كان باخوم مدققاً في أحاديثه فلا يستخدم اللسان إلا للبنيان... وقد سمع يوماً راهباً يخاطب صبياً كلاماً بلا معنى ولا فائدة قائلاً "الآن أوان عنب..." فأنتهره الأب قائلاً:... لماذا تعطي للشيطان موضعاً لكي يتكلم من فيك. أما سمعت الرسول يقول بألا تخرج من أفواهنا كلمة رديئة، بل كل كلمة صالحة لبناء الجماعة، حتى تعطي السامع نعمة.

أنني الآن أشهد بأن كل كلمة بطالة، أو استهتار، أو مزاح، أو لعب أو جهل... هذه كلها زنا للنفس.

ولكي أوضح لك مدى غضب الله على الإنسان الذي يتكلم كلاماً باطلاً أو كلمة استهزاء، أقول لك هذا المثل:

دعا رجل غني أناساً إلى وليمة لكي يأكلوا ويشربوا ويفرحوا، وفي أثناء الوليمة قام بعض المتكئين وأخذوا يمزحون فكسروا الأواني الموجودة في بيت ذلك الغني. ترى ماذا يفعل بهم؟! أنه يغضب عليهم ويوبخهم قائلاً: يا عديمي الشكر، لقد دعوتكم لكي تأكلوا وتشربوا، فكيف تمزحون وتكسرون الأواني؟! هكذا يغضب الرب على أولئك الذين دعاهم لوليمته قائلاً لهم "دعوتكم لكي تتوبوا عن خطاياكم وتخلصوا، لكنكم هدمتم نفوسكم ونفوس الذين جمعتهم لكي يخلصوا، وذلك بالضحك والكلام الباطل.

حدث أيضاً في بداية نظام الشركة أن الأخوة الذين كانوا بدير بافو يخبزون في دوناسة[1]، وكان النظام الباخومي يقضي بأنه إذا اجتمع الأخوة في أي عمل يدرسون في الكتب المقدسة أو يحفظ كل منهم مزموره أو يصلي ولا يتكلم مع أخيه... فحدث أنه بينما كان بعض الخبازين يعملون، تحدث أحدهم بكلام باطل. فظهر ملاك الله لأبينا باخوميوس، وقال له: أنظر ما يصنعه هؤلاء، وكيف يخالفون الوصية وأنت تتركهم...

وفي الصباح استدعى الأب ابنه تادرس، إذ كان في ذلك الوقت أباً لمجمع دوناسة. وخبازاً مع الأخوة، وسأله عمن تكلم من الأخوة فلم يعرف. فبحث تادرس الأمر ووجد ثمانية عشر رجلاً دون أن يعرف من منهم قد تكلم بالكلام الضار. فرجع تادرس إلى أبيه حائراً... فتبسم الأب بحزن، أما تادرس فبكى. وإذ تعجب الموجودون من بكائه بغير سبب، قال لهم باخوم "اتركوه يبكي من أجل التهاون الذي صنعه".

فترك تادرس الخبيز لآخر، وانعزل إلى موضع في المجمع حسب النظام الباخومي، وأخذ يصوم يومين يومين من أجل التهاون الذي صنعه...

وبقى هكذا ثلاث أسابيع إلى أن فاتحه باخوميوس في الأمر مظهراً له ضرورة الطاعة لوصايا الدير، وعدم الحديث أثناء العمل... مذكراً إياه كيف كان الكهنة والشعب يدورون حول أسوار أريحا صامتين إلى أن أذن لهم الرب بالتبويق... كما حدث عن ضرورة التدقيق في هذا الأمر لئلا تطلب نفسه عوض النفوس التي تهلك بسبب الكلام الباطل.

---

(١) عن املينو – النص العربي.

محاربته ضد الشياطين

"فأن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء... مع أجناد الشر الروحية في السماويات" أف٦:١٢.

الشيطان وجنوده أعداء غير منظورين يحاربون أولاد الله بخبث ومكر... لكن الله لا يسمح لهم بمحاربتنا إلا قدر احتمالنا.

والحديث عن محاربات العدو حديث طويل تحدث عنه الكثير من الآباء المختبرين... إنما ما نريد أن نذكره أن العدو لا يقوم بمهاجمتنا متى سالمناه... فالشاب الساقط في خطية الحب الشهواني تجاه فتاة معينة لا حاجة لأن يحاربه بنظرات شريرة وأفكار الدنس تجاه غيرها... فيظن الشاب أنه بلا خطية. لكن متى رفض علاقته بالفتاة وبدأ مع أب اعترافه بالصلاة والجهاد ضد الخطية تزداد عليه الحرب الشهوانية... لأن الشيطان يجد أن مملكته في داخل هذا الشخص بدأت تتزعزع...

والعدو لا يحاربنا بطريقة مباشرة، فهو يترك جسدنا يصارع روحنا، والعالم بمغرياته أو أحزانه يحاول قتل حياتنا... لكن بالنسبة لأولئك الذين أخضعوا الجسد للروح واستخدموه في العبادة الروحية الحقة، والذين ماتت فيهم محبة العالم وارتفعوا في درجات الروح العميقة... أمثال هؤلاء الجبابرة قد يسمح الله لهم بأن يحاربهم العدو علانية لأنهم قادرون بنعمة الرب على مواجهته بغير خوف أو رعب.

وقد جاء عن القديس باخوميوس أن الرب أعطاه بصيرة خاصة إذ كان يرى الأرواح الشريرة تطوف حول الأخوة لعلها تجد فيهم مكاناً، فكن يسبق ويخبرهم ليتحفظوا من مكائدهم. لذلك كانت الشياطين تغضب عليه. وكثيراً ما كان رؤساؤهم يظهرون له قائلين "أما تموت بعد لكي يظهر الأمر أن الناس لم يتبعوا هذه الطريقة من أجل خوف اللهم إنما لأنك تعظهم على الدوام؟!".

وكثيراً ما كان يسمعهم يتكلمون، ويرى ملائكة الله تنتهرهم لأنهم يضللون الناس. وكان إذا سقط شخص ما، يرى الشياطين تفرح وتسر جداً، أما إذا تاب ورجع إلى الله فأنها تحزن وتتضايق.

وفي أحد الأيام سمع روحين يتحادثان. قال الواحد للآخر: ماذا أصنع لأني ألازم شخصاً شريراً وقد أبغضته جداً، لأنه في الوقت الذي أضع في قلبه شيئاً صغيراً يقوم لساعته ويبسط يديه ويصلي باكياً، فيحرقني دخان صلاته، ولساعتي أبتعد عنه. أما الآخر فقال: صاحبي ذو جودة قلب، طائع كل هوى وكل شهوة، إذا بذرتهما فيه يقبلهما لوقته بفرح. وهذا قد أحببته جداً.

وفيما يلي بعض ما ورد في سيرة القديس عن محاربات العدو العلنية ضده.

١- حدث أنه فيما كان جالساً يعمل، ظهر له الشيطان في شكل ديك وصرخ في وجهه، فأغلق الأب عينيه حتى لا ينظره. فظهر له الشيطان على شكل ورقة شجر، وجاءوا بحبال مفتولة، وصار يجرون الورقة كأنها حجر ثقيل جداً يئنون منه. هذا كله بقصد إضحاكه أثناء الصلاة، أما هو فرشم علامة الصليب عليهم فاختفوا.

٢- وفي إحدى المرات ظهرت له الشياطين على شكل نساء عاريات، جلسن ليأكلن معه، أما هو فاغلق عينيه ولم يفكر فيهن...فانصرفت الشياطين.

٣- وفي مرة أخرى ظهرت له الشياطين، وصارت تضربه ضرباً مؤلماً محسوساً، أما هو فلم يكن يعزيه سوى ذكر الله....

وفيما هو على هذا الحال سمع صوتاً يقول له "تشجع وتقو فأني أنا معك لا أهملك".

وبعد سماعه هذا الصوت زاره الأب راقابولون، الذي أخذ يشجعه على الجهاد والصراع، وسكن عنده أياماً قليلة ثم تنيح.

٤- وحدث أيضاً أن ظهرت له الشياطين في صورة رب المجد، وقالت له "افرح يا باخوميوس لأني جئت لافتقادك".

لم تخف هذه الحيلة عن هذا الرجل المختبر، الذي لا يريد أن يرى الرب بعينيه الجسديتين هاهنا، بل يراه بقلبه إلى أن يعاينه وجهاً لوجه في الأبدية... لذلك صرخ للرب يسوع أن يعينه، وللحال تلاشى المنظر كالدخان قدامه.

٥- جاء في سيرته أيضاً أنه بينما كان ماشياً مع تادرس في إحدى الليالي، وهما يرتلان ويسبحان الله ويتحدثان من الكتاب المقدس، ظهر لهما خيال شبه امرأة جميلة جداً يتقدمها جموع كثيرة حاملين مصابيح، حتى صار الليل كالنهار... فلما رأى تادرس ذلك اضطرب قلبه، فشعر أبوه بذلك فقال له: تقو يا تادرس وتشجع. لا تخف وتأيد بالرب. ثم أخذ يصليان معاً ويطلبان من الرب أن يرحمهما ويشتت هذا الخيال من أمامهما حتى لا يخدعهما.

وفي أثناء ذلك. قالت المرأة لهما: لا تصليا وتتعبا باطلاً، لأنكما لا تقدران على قهري. فقط أخذت سلطاناً عليكما.

فسألها أبونا باخوم: من أنت؟

أجابته: أنا ابنة الشيطان، والحاملة كل قوته، وكل طغمات الجن تتعبد لي. أنا اهبط على الأرض إلى جماعة القديسين.... وأقاتل ولا أمل...

أنني لم أحتمل غلبتك علي وعلى أصحابي وكل جماعتي، فقد عيروني بسببك. إذ لم يكن من قبلك من استضعفنا مثلك، لهذا أخذت على عاتقي أن أحاربك إلى النهاية. فأنك قد جمعت صبياناً وشيوخاً، وملأت بهم البراري والقفار، وأسكنتهم في موضعنا، وسيجتهم بسور منيع الذي هو مخافة الله والاتضاع، حتى لم يستطع أحد منا أن يدنو إلى أحدهم. وكل هذا ما تم لكم إلا بالرب المتأنس الذي وهبكم سلطاناً علينا، وأعطاكم بصليبه قوة عظمى بها تغلبون قوتنا.

فقال لها الطوباوي: قولي لي يا ابنة الكذب ومأواه، يا نجسة الفم، هل لي وحدي قد جئت أم إلى أناس آخرين غيري؟

أجابته: أنت وجميع من معك، ومن يقتدي بك.

فقال: وتادرس هذا أيضاً!

أجابته: نعم. تادرس ومن على منواله. أشد أوتار قوسي وأصوبها نحوهم. وقد أخذت على جميعكم سلطاناً لكي أجربكم. لكنني لا أرى أن أدنو منكما أنتما الاثنين، خوفاً لئلا يرتد سهمي الذي أصوبه نحوكم إلي فأخزى وأنفضح، لأني أعرف حيلكما.... من بعدكما (أي بعد موتكما) أن يكون لي فيهم نصيب.

فقال لها الطوباوي: ومن أين لك هذا؟

أجابته: أني أعلم وأتحقق أن من بعدكما تبرد محبة الكثيرين ويملك عليهم الكسل والتراخي.

قال: تكذبين في هذا جميعه، لأن علام الغيب هو الله.

أجابته: نعم. لكن نحن نحدس حدساً. وقد أخذنا لنا عادة مقاييس نقيس بها ونصيب هدفنا... وأعلم أننا لن نكف عن قتالكم، لأن طبيعتنا لا تمل ولا تنام، وزرع شرورنا دائم ونعرض بضائعنا على كل أحد... فمن انجذب إليها نلهبه بالشهوة وحب الملذات وكثرة المأكول الذي يعيننا على ما نريده، ومن بعد هذا نهجم عليه كشجعان قادرين. فإذا لم يصغ هو إلينا ويسأل الله بعقل مستيقظ نصير نحن عنده كدخان في الهواء. فنحن لا نقدر على محاربة الكل، وإلا لكنت قد خدعت كثيرين من أصحابك. وأنني أعرفك بأن جميع الحرب متوقف على إرادة وسلطان من نحاربه، فمن شاء قبلنا ومن لم يشأ يطردنا.

وعند ذلك نفخ أبونا عليها وقال: قوة الله تبيدك إبادة تامة وزجرها ألا تقترب إلى أديرته البتة.

وفي الصباح استدعى المسئولين وأخبرهم بما رآه، وكتب إلى جميع الأديرة التي تتبعه يخبرهم ويحثهم على السهر والجهاد والتحفظ من خداعات الشياطين وحيله.

+ + +

هذه صورة عرفناها عن حرب الشيطان ضد باخوم... وما خفي كان أكثر...

لا تخف أيها العزيز، لأن الله لا يسمح للشيطان أن يحاربك إلا بالقدر الذي تستطيع بنعمة الرب أن تهزمه... فأنك أن تمسكت بالروح القدس الساكن فيك، وتجاوبت مع الرب يسوع الذي يحبك، وسلمت حياتك بين يدي الأب السماوي الحنون فأنه لا يستطيع الشيطان أن يغلبك...

لكن كن متيقظاً، لأنك في حالة حرب دائمة مع العدو إذ يقول الكتاب: "أخيراً يا أخوتي تقووا في الرب. وفي شدة قوته. ألبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس....

"من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشرير وبعد أن تتمموا كل شيء أن تثبتوا...." أف٦:١٠ الخ.

+ + +

القائد المربي

قيــادة حكيمــة

يعتبر باخوم مثالاً عظيماً في القيادة الروحية الحكيمة...

امتاز بالقلب المتسع لمحبة الجميع، والأبوة المترفقة بالضعفاء، والحكمة الإلهية التي تعرف كيف تقود الكل في موكب الخلاص والنصرة...

كان باخوم الناسك الشديد مع نفسه والنساك الذين تحت إشرافه، والأب الحنون الذي يترفق بالمبتدئين ويحنو على المرضى...

كان باخوم الرجل العسكري الدقيق كل الدقة في تنفيذ كل حرف من حروف الأنظمة، في الوقت الذي فيه أمتاز بالمرونة العجيبة يعرف كيف يعامل كل واحد حسبما يتناسب معه... وهو في هذا لم يشكل رهبانه في قالب واحد، بل يعطي لكل واحد أن ينمو حسبما وهبه الله من مواهب خاصة به...

وفيما يلي بعض جوانب الرعاية التي أمتاز بها هذا الرجل الروحاني المحب.

+ + +

أولاً: جهاده أن يكون قدوة لهم

القائد الحقيقي هو الذي يقدم لأولاده مثالاً عملياً في حياته وسلوكه... لا بتمثيل أو افتعال أو رياء... إنما بكونه إنسان يبحث فعلاً عن خلاص نفسه ويسلك في طريق الخلاص متجاوباً مع عمل الروح القدس في حياته...

هذا ما امتاز به باخوم... أنه في وسط كل تلك المسئوليات الجبارة التي كان مطالباً بها لا ينسى حياته كإنسان سالك في طريق الملكوت باحثاً عن الأبدية فوق كل اعتبار... لذلك لا عجب إن رأيت في أغلب ما ورد عن سبرته أنه كان ينسى أو يتناسى أنه الرئيس الأعلى للأديرة الباخومية والأب المحبوب من جميع أولاده الرهبان.

هذا من جانب، ومن كان الأب يحرص كل الحرص ألا يعثر أحداً...

فقد حدث أن كان الأخوة في حصاد بالجزيرة، وكان تادرس معهم مهتماً بإصلاح المائدة. وفي إحدى الليالي جاء قديسنا وهو موعوك الصحة ومريض جداً. فقال لتادرس تلميذه "أبسط لي على الأرض حصيراً ولا تطرح على الحصير شيئاً". فبسط تادرس الحصير وطرح تحتها مسحاً، فلما رأى الأب ذلك طلب منه أن يأخذ المسح ويترك الحصير وحدها مثل سائر الأخوة فنفذ تادرس ذلك.

وإذ رأى تادرس شدة مرض أبيه ملأ يده بلحاً وقدمه له. فلما رأى الأب ذلك لم يكلمه بشيء بل صارت دموعه تسيل. فقال له تادرس "أنك مريض ولا تشاء أن ترقد على مسح شعر، وحتى كف تمر لا تشاء أن تأخذه أيضاً!!". فأجابه الأب قائلاً أنه يخشى حكم السيد المسيح، لئلا يكون من بين الأخوة من هو مريض أكثر منه دون أن يعلم به، ويكون ما يحتاجه الأخوة بين أيديهما (باخوم وتادرس) فينالا راحة أكثر من الباقين. ثم قال له أنه يلزمهما أن يكونا قدوة للرهبان في كل شيء.

+ + +

ثانياً: محبته لهم

القلب الذي تعرف على الرب يسوع وامتلأ بالروح القدس وتلامس مع ملكوت السماوات يتوق أن يتمتع الجميع بما يتمتع به وأكثر منه.

يود أن يرى كل إنسان –حتى مضايقيه– سالكاً في طريق الخلاص.

يشتاق من أعماق قلبه لو كان لجميع العالم نصيب في الحياة الأبدية، وأن يكون هو أيضاً معهم ولو آخر الجميع وخلف الكل.

هكذا كان قلب رجل الله باخوم فقد جاء عنه أنه إذ كان في منطقة طبانسين قرية خربة يجتمع فيها الرعاة مع بهائمهم، وكان من بين الرعاة مؤمنون، بنى لهم كنيسة بعد استشارة الأب سرابيون أسقف دندرة. وكان الأب بنفسه يزورهم ويعظهم ويخدمهم فآمن على يديه كثيرون وكانت الكنيسة تنمو كل يوم... وقد دبر الله لهم قساً مباركاً، وكان باخوم يقوم بسد احتياجاته بل وبعض احتياجات الشعب أيضاً...

هكذا أيضاً كان محباً لنمو كل إنسان في علاقته بالرب يسوع... وقد جاء عنه أيضاً أنه غاب عن أحد الأديرة لافتقاد الأديرة الأخرى، وعند عودته قابله أحد الرهبان الحديثين وقال له "أيها الأب. من حين مضيت من عندنا وإلى اليوم لم يطعموننا شيئاً من الحبوب طبيخاً، ولا شيء من الخضر سليقاً".

ثم دخل الأب الكنيسة وصلى، ثم ذهب إلى المطبخ وقابل مقدم المطبخ ومن معه، ثم سأله "كم لك من الزمان لم تسلق للأخوة سليقاً؟".

أجابه المقدم "منذ شهرين".

قال الأب "ولم فعلت هذا ما دامت قوانين آبائنا القديسين تأمر بأكل المطبوخ (وعدم التنسك) في أيام السبوت والآحاد؟".

أجابه المقدم بأنه لم يهمل، إنما الرهبان هم الذين لم يقبلوا أن يأكلوا المسلوق فكان يسكبه. وبهذا كان الدير يخسر في كل وجبة حوالي أربعين كيلاً من الزيت دون أن يأكل أحد منها شيئاً. فمن أجل هذا لم يعد بعد يطبخ. وإذ لم يرد أن يبقى في كسل وتراخي، صنع حصراً عوض الطبخ.

سأله الأب بطول أناة: هل انتهيت من تقديم عذرك أم لك شيء آخر تقوله؟

أجابه المقدم بأنه لم يبق له أي سبب آخر يقدمه.

فسأله الأب قائلاً "كم حصيراً صنعت منذ تركت خدمتك؟".

أجابه "خمسمائة حصيراً".

فطلب الأب منه أن يحضر الحصر، فلما أحضرها أمر بإحراقها، ثم وجه الحديث قائلاً "لأجل أنكم[1] تجاوزتم القانون المسلم إليكم بخصوص خدمة أخوتكم، بوسوسة الشيطان لكم، وعملتم بسبح باطل مشيئتكم، وتبعتم هواكم، أحرقت أنا بغير شفقة عمل أيديكم، حتى تتعلموا مقدار تهاونكم في سنة افترضها آباؤكم القديسون، وسنوها لأجل خلاص النفوس وارتوائها. أما تعرفون كم من الفضائل أعدمتم الأخوة بسوء تصرفكم، إذ ضللكم الشيطان بأن في ذلك خسارة (زيت). مع أن فيه فائدة كبرى للنفوس ومنفعة عظمة. أما تعلمون أن أجر الممتنع عن هذه الأمور عنوة وإلزاما أقل من أجر المبتعد عنها اختياراً؟ أما تفهمون أنه إذا تقدم على المائدة طبيخ ومأكول، وضبط الأخوة أنفسهم عن أكله ومذاقه من أجل الله تطوعاً واختياراً، وليس إلزاماً، فأن جزاءهم يزداد عند الله ويتكاثر... وإذا لم يحضر إليهم طبيخ ولا مأكول، فكيف يظهر قطع الهوى، ويحسب لهم نسكاً وضبطاً. وأن يكون موضع الجهاد والغلبة التي تكون بازائها الأكاليل؟ وأنتم لأجل أربعين كيلاً من الزيت أعدمتم الأخوة أن يثمروا مثل هذه الأثمار الحسنة النصرة. ألا تعلمون أن جميع هيولي هذا العالم ومواده فانية زائلة، وأما الفضيلة فباقية. أيليق عند ذوي العقول أن تقايض الدائم بالفاني؟! أما أنا فقد كنت أشاء أن يطبخ من الأكل ألواناً ويعد من الفاكهة أنواعاً.. حتى متى قطعوا هواهم وامتنعوا تقشفاً ونسكاً عن الأكل باختيارهم يزدادون في الفضيلة زيادة واضحة، ويثمرون ثماراً كثيرة.

ومع ذلك لو عرض لأحد المرضى أن يأكل فجاء إلى المائدة ليتناول منها ليسترد قوته، فإذا لم يجد عليها الأكل فأنها تتبلبل أفكارهم.

ألا تعلمون أيضاً أن الجياد الصغار لا تستطيع السير مع الخيل الكبار، كذلك الشبان لا يمكنهم أحكام الفضيلة مثل الشيوخ... بل يتدرجون مهلاً مهلاً نحو إتقان الفضيلة العظيمة...الخ.

وعندئذ أمره بالإقالة عن عمله هذا، وأن يقدم توبة صادقة عن عدم طاعته للقوانين...

هكذا كان باخوم محباً لنفوس هؤلاء الشبان مهما تكن التكلفة، ويحب هذا المقدم مؤدباً إياه بحزم لكن في محبة واشتياق لنموه الروحي.

وجاء عنه أيضاً أنه في أحد الأيام جاء بعض الأخوة مساء إلى الدير بسفينة ليحملوها حلفاء، وكان تادرس قد طبخ للأخوة الذين بالدير دون أن يعلم بحضورهم، فلما رآهم فكر في نفسه أن الأكل لا يكفي. وغذ علم باخوم بما يفكر فيه تادرس حزن من أجل هذا الفكر... أنه ما كان يلزمه أن يقلق ويضطرب وأن سلام قلبه وتسليمه أهم من كل اعتبار آخر، لذلك قال له "ما هذا الفكر الذي خطر ببالك يا تادرس؟! كان يلزمك عند رؤيتك لأخوتك أن تقول: يا رب كما أتيت بالأخوة إلينا لننظر بعضنا بعضاً، أهلنا أن نستحق رؤية بعضنا البعض في الدهر الآتي في راحة"...

ثم قدم تادرس الأكل فأكلوا وفاض عنهم.

---

(١) يبدو أن المقدم ومساعدوه صنعوا هذا.

حسن هو كرم الضيافة ومحبة الغير... ولكن ما هو أفضل وأهم ألا يضطرب القلب لأي سبب، وألا ينحرف عن الانشغال بالحياة الأبدية وملكوت السماوات مهما كان الدافع.

هذا ما يسعى إليه باخوم في حياته وحياة كل من يحبهم بالحق.

طول أناته:

إذ كان باخوم يتوق إلى بلوغ كل إنسان إلى الحياة والتمتع الدائم بالشركة مع الرب كان حازماً وشديداً لكنه أيضاً كثير الرأفة طويل الأناة جداً يترفق بالجميع...

وقد سمح الله أن يتعلم أيضاً طول الأناة، إذ حدث أن زاره مرة أحد الأخوة المتوحدين، وإذ كانا معاً، رأى الأب شبحاً أسوداً على الباب، فتعجب الأب من ذلك دون أن يعرف معناه. وبعد أن تحدثا معاً أراد المتوحد أن ينصرف فلم يدعه الأب يمضي قبل أن يأكل.

مر تادرس بهما فطلب منه الأب أن يعد خبزاً ليأكل الأخ. وإذ طال انتظاره دون أن يحضر تادرس شيئاً، طلب من أخ ثان أن يعد الخبز... وتكرر الأمر فطلب من أخ ثالث... وأخيراً قام باخوم وأعد بنفسه الطعام.

ولما مضى المتوحد استدعى الأب تلميذه وقال له "ما هذا الاحتقار الذي صنعته بي يا تادرس؟!.... أبوك الجسدي لو أمرك بشيء هل كنت تحتقره؟ ما أظن ذلك!".

فلما سمع تادرس هذا الكلام بكى... وإذ استفسر عن الأمر، أجابه بأنه لم يحضر الطعام ليس تهاوناً منه به إنما لأنه ظنه يقول له "أعتزل لأني أكلم الأخ".

استدعى الأب الأخوين أيضاً واستفسر منهما عن سبب عدم إحضار الطعام فأجابا مثل تادرس... عندئذ عرف أن الشبح الذي رآه على الباب هو الشيطان، إذ يريد أن يبث بينهم الحزن... وعندئذ شكر الله من أجل طول الأناة التي وهبه الله إياها... وكان يعلم بتلك القصة ليبث بين الأخوة روح طول الأناة.

وجاء أيضاً أنه في دير صغير عن يمين دوناسة طلب راهب من رئيس الدير أن يعطيه وظيفة ما. وإذ رأى أنه لا يصلح لها قال له بأن باخوم يرفض إعطائه الوظيفة. فغضب الراهب لذلك، وللحال أخذ معه ثلاثة أخوة والرئيس وذهب الكل إلى الدير المجاور ليقابلوا باخوم. فلما وصلوا هناك وجدوه يبنى في حصن المجمع مع الرهبان. فأخذ الراهب يسب ويشتم باخوم. فنزل باخوم وطلب منه السماح. وإذ سأل عن الخبر عاتب الرئيس لتصرفه هذا دون أن يستشيره... وتفاهم معه أنه يخشى لئلا يفترسه الشيطان إن لم يأخذ الوظيفة، وأنه بطول أناة يهبون له طلبته فيشعر بالإحسان المعطى له في غير موضعه فيترك جهله. فهذه هي محبة الله أن نحتمل بعضنا بعضاً في وقت التجربة.

ثم ألتفت الأب إلى الراهب بوجه باش وقال له "هوذا قد أمرته أن يعطيك طلبتك فأغفر لي".

وللحال شعر الراهب بالخجل أمام طول أناة هذا الأب، فسجد أمامه قائلاً "لقد تعاليت في عيني يا رجل الله أكثر مما يسمع عنك، لأنني قد شاهدت عياناً غلبتك للشر. الرب يعرف أنك لو لم تطل روحك علي، أنا الجاهل الأثيم في وقت غضبي، لكنت قد تخليت عن الرهبنة وصرت علمانياً، إلا أن صلاحك غلب شري. فمبارك أنت يا رجل الله، لأنه بطول روحك وحسن صبرك وتأنيك علي وهبت لي (من جديد) نفسي المسكينة. وها هي حياتي الآن بسببك ربحتها".

وجاء أيضاً أنه كان هناك عشرة رهبان متنسكين جداً، لكنهم كانوا نمامين، الأمر الذي أحزن الأب عليهم. فكان إذا جاء أحدهم متكلماً ضد أخيه يتركه ويقوم في الحال وهو يقول كلمات المرتل "الذي يقع بقريبه خفية كنت أطرده". وإذ لم تجد معهم هذه الطريقة، لم يرد أن يستخدم معهم طرق التأديب سريعاً، بل التجأ إلى الله بصلوات حارة أربعين يوماً... وكان يأكل مرة واحدة في الأسبوع، فتحنن الله عليهم وردهم عن خطيتهم.

وذكر عنه امليو أنه كان يوجد عشرة رهبان قدامى أيضاً، بدأت أفكارهم تتدنس. فأخذ يبكي عليهم خمسين يوماً، مقدماً صلوات وتضرعات كثيرة لعل الله يرحمهم ويعيد إليهم نقاوة أفكارهم. وكان صائماً من أجلهم فلا يأكل سوى مرة كل يومين أو ثلاثة أيام أحياناً. وإذ رأى بعض الآباء القدامى والمسئولين بكاء الأب المستمر، سألوه عن السبب، فأخبرهم. فقال له أحدهم: إن كانت نفسك تنزع عنك بسبب هؤلاء فالأفضل أن تطردهم لئلا تموت بسببهم... لأن خروجهم مع حياتك أفضل من موتك فنحزن نحن جميعاً.

أجابه الأب قائلاً "يا شقي. ما هذه الكلمة التي تقولها أنني "اطردهم" أما سمعت ما فعله موسى عندما دفع نفسه عن الشعب لما عصوا. وقال للرب وهو يسأل: إن كنت تبيدهم فامحني من سفرك الذي كتبتني فيه. وأنا أيضاً هذه هي إرادتي، أن أجاهد بطلبات عند الرب يسوع. وأن كانوا لا يستطيعون جميعهم ليخلصوا، فسيخلص بعضهم برجوعهم عن نجاسة قلوبهم".

وفي أحد الأيام جاءه أحد هؤلاء الذين كان ينوح بسببهم مع بعض الأخوة وقال له "ماذا أفعل في هذه الأيام؟".

أجابه الأب أن يشكر الله لأن قلبه استراح. ثم قال له بأنه في الأوقات التي يشعر فيها بتعب، فهذه علامة أن الشيطان ليس له مكان فيه لذلك يحاربه. أما متى فتح الإنسان قلبه للشيطان فأنه يجلس ويستريح ولا يحاربه لأنه في داخله....

ثم عاد يقول له بأنه لو صام يومين وصلى كثيراً من العشاء إلى الصباح فإن هذا وحده لا يكفي لكي ينزع عن شره، إنما الحاجة أولاً إلى طاعة أبيه الروحي.

هكذا لم يكن يسرع باخوم في الطرد بل يحتمل الكل في طول أناة مع حزم واهتمام بحياتهم الروحية، وجهاده في صلاة وأسهار وأصوام من أجلهم.

وقد جاء أيضاً أن بعض رهبان دير بافو المتقدمين، خيل لهم أن باخوميوس يتحدث بعجب على سبيل المباهاة. أما هو ففي طول أناة لم يناقشهم ولا دافع عن نفسه، إنما كان يصلي ببكاء شديد ويصوم حتى انحل جسده وضعفت قوته لئلا يفقد هؤلاء الآباء حياتهم بسوء ظنهم... وبقى هكذا حتى كشف الله لهم الأمر وعادوا نادمين.

هذا وقد امتاز باخوم بطول أناته من جهة اهتمامه الكثير وجلوسه فترات طويلة مع المرضى، مذكراً إياهم بالحياة الأبدية... لأنه كان يخشى لئلا يستغل عدو الخير نومهم الجسدي كفرصة لبث أفكار القلق أو غيرها فيهم...

+ + +

<u>اهتمامه بروحهم المعنوية:</u>

زار القديس مقاريوس الإسكندري الأب باخوم في ديره بطبانسين، متخفياً في زي عامل عادي، فدهش الرهبان لما رأوه في مقاريوس من النسك... فتضجر الرهبان وبدأ الشيطان يهاجمهم بفكر الحسد واليأس، حتى ذهبوا إلى أبيهم قائلين "من أين أتيت لنا بهذا الرجل الهزيل ليشعرنا بحقارتنا. اطرده وإلا نترك نحن لكما الدير".

اهتم باخوم بالأمر، وأخذ يصلي حتى كشف له الرب أمره، فأخبرهم بأنه مقاريوس، ففرحوا به...

ويعلق الدكتور منير شكري على هذه الزيارة قائلاً[1] "تناول كثير من الكتاب والمعلقين على هذه القصة، فكان يثير إعجاب البعض ذلك الصوم لمدة أربعين يوماً والذي لم يتخلله سوى بعض أوراق الكرنب، وكان يرى البعض الآخر أن البطولة هنا كانت لباخوميوس الذي أدرك ما خالج نفوس رهبانه

ورأى أن القلق الذي استولى عليهم لم يكن سببه عجزهم عن مجاراة ذلك الناسك العجيب، وإنما فيما تولد عن هذا المنظر من شعور مختلط من الحسد والغضب واليأس. وأحس بما يحمل ذلك في ثناياه الخطر كل الخطر على الروح المعنوية بينهم، فتدخل في الوقت المناسب وحفظ بذلك كيان الدير قبل أن تتعرض أنظمته لأي اهتزاز عنيف. ومن منا تتبع عن كثب أنظمة الجيوش في الحرب العظمى الأخيرة وعرف كيف يجتهد القائد المحنك في المحافظة على الروح المعنوية بين جنوده، والعمل على رفعها بجميع الوسائل، يستطيع أن يرى في النبا باخوميوس الرئيس الأمثل، وهو هنا يعطي لنا درساً على جانب عظيم من الأهمية عن "الروح المعنوية" وأهميتها الحيوية وعلاقتها بالنظام في تدبير شئون الشركة.

+ + +

---

(١) عن كتاب الرهبنة القبطية.

ثالثاً: حزمه معهم

التقى الأب مقاريوس[١] بالأب باخوم وفيما هما يتفاوضان في أقوال الله، أشار باخوم لمقاريوس قائلاً "أيها الأب عندي هاهنا أخوة سيرتهم بغير نظام، فهل تأديبهم جيد أم لا؟

أجابه القديس: أدب وأحكم حكماً عادلاً على الذين هم تحت يدك. أما غير هؤلاء فلا تحكم عليهم، لأنه مكتوب احكموا على الذين في الداخل، أما الذين في الخارج فالرب يحكم عليهم.

لقد وضع باخوميوس نظاماً محكماً للتأديب، لكنه كان يمتاز بالمرونة في التنفيذ... يعرف كيف يعامل كل إنسان حسب ما يتناسب مع شخصه وميوله واتجاهاته ونفسيته... وإليك أمثلة في ذلك لغرس أهم الفضائل.

١- **<u>الطاعة:</u>**

الطاعة أحد الأعمدة الأساسية التي نشأت عليها الرهبنة، وبخاصة نظام الشركة... فبدونها يسقط الراهب في الكبرياء والغرور، ويتحول الدير إلى شيع وتحزبات ويفشل الرهبان في الدخول إلى أعماق الروحانية الحقة. وقد رأينا مدى حزم باخوم مع نفسه في طاعته حتى لأولاده الرهبان في الرب وخضوعه للقوانين كواحد منهم بلا تمييز.

لقد استخدم الحزم الشديد مع راهب في تعليمه الطاعة. فقد عين لهذا الراهب مقدار الثمن الذي يبيع به صنادل من عمل الدير. فلما مضى ليبيعها أعطاه بعض الأشخاص ثمناً أكثر. ولما عاد وسمع قديسنا بهذا الأمر انه كان يأخذ أكثر مما حدد له وبخه بعنف من اجل عدم طاعته ثم طالبه أن يعود ويرد الزيادة إلى المشترين، وبعد عودته طالبه أن يتوب عن عصيانه ويمارس عمل يديه ولا يقوم بالبيع مرة أخرى ملازماً قلايته.

وفي مرة أخرى استخدم اللطف في تعليم الطاعة لراهب آخر. فقد حدث أن في أحد أيام الخماسين كان على تادرس أن يقوم بخدمة المائدة. فقدم تادرس لأخوته جبناً فأكلوا، وبعد الأكل أعطوا لتادرس أن يأكل من الجبن. أما هو فلم يقبل، وإذ ألحوا عليه أجابهم "لا".

سمع ألب تلميذه ينطق بهذه الكلمة "لا"، فانتهره بلطف قائلاً: ما هذه الكلمة التي قلتها يا تادرس؟ إن بمجرد قولك كلمة "لا" تعطي للشيطان فيك مكاناً للمعصية. فإن كنت تريد ألا تأخذ. فقل "الآن لا أريد أن آخذ" وخذ منه قليلاً ثم رده مرة أخرى. ولا تسمح أن تصير هذه الكلمة "لا" عادة عندك لأنها ليست ثمرة مستقيمة. فلما سمع تادرس بهذا لم يعد ينطق بهذه الكلمة بعد.

---

(١) يبدو أن المقصود هنا هو مقاريوس الكبير ولعله زاره، وهذه غير زيارة مقاريوس الإسكندري له.

٢- **<u>الإتضاع:</u>**

الإتضاع هو الحصن الداخلي الذي يحفظ المؤمن من خداع اللص الخبيث "البر الذاتي". والإتضاع أمر داخلي لا يقدر المعلم أن يغرسه في أولاده ما لم يعط حكمة سماوية وتمييزاً روحياً عميقاً، مع حزم مملوءة ترفقاً.

فكمثال في أحد الأيام جلس باخومنا مع أناس فضلاء من الأخوة والشيوخ، وكانوا قد خرجوا من الدير للرياضة والحديث في أقوال الله. وكان أمامهم أخ يصنع حصيراً أمام باب قلايته دخله فكر الكبرياء وحب الظهور فصنع هذا الأخ في ذلك اليوم حصيرتين بدلاً من حصيرة واحدة....

أدرك باخوم كيف تسلل شيطان "حب الظهور" في داخل نفسه وإذ أراد أن يعطي الكل درساً فقال لمن هم حوله "ألا ترون هذا الشقي كيف أضاع تعب يديه. دافعاً باختياره تعبه لإبليس عدوه، فلم يترك لنفسه من جهاده شيئاً ولا حتى النذر اليسير، إذ أحب مجد الناس أكثر من مجد الله..." ثم استدعاه الأب وانتهره على صنعه السيئ هذا، ثم تلطف به. وطلب منه أن يحمل الحصيرتين عند الصلاة ويأتي بهم أمام الأخوة في الكنيسة ويرجوهم قائلاً "أيها الآباء والأخوة أرجوكم أن تصلوا من أجل نفسي حتى يرحمها الله أب كل رحمة ورأفة ويشفيها بصلواتكم، لأنني آثرت هاتين الحصيرتين على ملكوت السماوات". وإذا جلس الأخوة على المائدة يقوم بنفس العمل. فنفذ الأخ كلام أبيه. وعندئذ أمره أن يحبس نفسه في قلاية منفردة ستة أشهر ويصنع كل يوم حصيرتين بدلاً من حصيرة واحدة وإعطاء تدريب نسك معين من جهة الأكل، وألا يتحدث مع أحد سوى الذي يحضر له الطعام.

هذا المثال يكشف لنا حزم الأب واهتمامه بخلاص أولاده وحب أولاده وطاعتهم له إذا أعطاه الرب نعمة في أعينهم.... هذا وأن الأب صاحب حكمة وتمييز روحي. لأنه كان يمكن أن يشجع هذا الراهب الذي يعمل حصيرين لأن فيه نفع مادي للدير... لكن حياته أهم من كل شيء!

وفيما يلي مثال آخر لتعليم الإتضاع لم يستخدم فيه الأب باخوم سوى الصلاة بدموع. فقد لاحظ في إحدى المرات أن راهباً كان يكثر من الصوم لنوال المجد الباطل. فأمره بالحضور مع أخوته الرهبان في منتصف النهار إلى المائدة ليأكل معهم من الخبز والحبوب المسلوق ولو قليلاً، قائلاً له بأن الأكل مع الأخوة أفضل من الصوم مع طلب المجد الباطل. وهذا وقد طلب منه أيضاً ألا يصلي أكثر من الصلوات المطلوبة منه، وإلا فليصلي الزيادة في قلايته، وإذا ما خرج من القلاية فليكن مبتسماً غير معبس الوجه وألا يشغل في أشغال الدير وقضاء حاجات الدير.

فلما سمع الأخ كلام أبيه قبله، لكن سرعان ما هاجمه روح المجد الباطل قائلاً "أي كتب تمنع الصلاة والصوم والخدمة..... فأن الذين يعجزون عن فعلها يأمرون بأبطالها. فلا يدخلون ولا يتركون الداخلين يدخلون". فتشبث الراهب بالعصيان وإذ نصحه الأب يقول له "هذا الروح النجس يجننك ويجعلك موسوساً وستنفضح". أما الأخ فكان يستهين بكلام أبيه.

وفي أحد الأيام قال لتادرس أنه شديد الحزن بسبب ما وصل إليه ذلك الأخ، وطلب منه أن يفتقده. فطلب منه أن يقطع صلاته فما كان من الأخ إلا أن حنق عليه وامتلأ غضباً وقال له بصوت عال "يا كافر.... أنت تمنعني وتعفيني عن الصلاة لربي". ثم قام وأمسك بقطعة خشب كبيرة وأراد أن يقتل بها تادرس، فزجره تادرس بأسم الرب وللحال توقف. ثم نطق على لسانه عدو الخير قائلاً بأن الذين يصلون على انفراد وفي أماكن توحدهم بصوت عال بتلحين بلذة معجبين بأصواتهم هذا من فعله هو. وكان بجوارهم أخ يلحن بصوت عال بلذة، فقال عدو الخير على لسان الرجل الأول (الذي أمسك بالخشبة) "أتريد أن أعمل في هذا الأخ فيردد نصاً تسع مرات".

أجابه تادرس "سد فاك واسكت يا غير بار".

وبالفعل كرر الأخ المجاور النص "فلنسبح الرب لأنه بالمجد تمجد" تسع مرات بتلذذ معجباً بصوته. فتعجب تادرس وأخبر باخوم بما حدث. فأخذ الأب يصلي من أجله بانسحاق قلب حتى يطرد الرب عنه الشيطان. فاستجاب الرب لصلاته وعاد الأخ تائباً خاضعاً لجميع أوامره.

٣- <u>الإماتة عن الشهوات:</u>

باخوميوس كأب يعمل بروح الله كان يعين أولاده لا على الموت عن شهوات الجسد والشهوات النفسية (الكبرياء والاعتداء بالذات) بل والشهوات الروحية. فالإنسان الذي يحب الله يتعلم حياة التسليم ولا يشتهي شيئاً، حتى الفضائل في ذاتها ليست شهوة إلا من حيث اشتياقنا أن نكون على مثال المسيح وسالكين بروحه.

كثيرون نجحوا في الموت عن الشهوات الجسدية والنفسية لكنهم فشلوا في تحطيم الشهوات الروحية فخططوا لأنفسهم طريقاً حسب فكرهم الخاص كأن يرتبطوا بشكل معين في العبادة مثل الرهبنة

بصورة معينة أو التكريس بشكل محدد أو ... الخ لأن الرهبنة أفضل من الزواج والتكريس في خدمة الرب حسن جداً... لكن لا تكون هذه الأمور في ذاتها أمر نبغيه كغاية في ذاته بل وسيلة تعبر عن حبنا للرب وعشقنا له، نقبلها من يدي الله وحده.

لهذا إن قدمنا كل صنوف العبادة بغير حب تصير كلا شيء بل وتصير عائقاً في الطريق ما لم يسندها الحب...

لقد اشتهى أخ متوحد الاستشهاد في أيام الملك قسطنطين حيث لم يكن يوجد استشهاد. وإذ أدرك باخوم بحكمة إلهية أنها مجرد شهوة وليست حباً في الرب، زجره قائلاً له أن هذا الفكر من عمل الشيطان.

وفي أيام قطع البردي، ذهب بعض الأخوة إلى قرية خربة تجاور الدير المسمى "فلماس". فطلب الأب من أحد المسئولين أن يرسل أخاً لافتقادهم، فوقع اختياره على هذا المتوحد الذي جاء إلى الدير.... فبدأ الأب يؤكد له ضرورة الحذر لنفسه. ثم باركه وتركه.

أخذ الأخ المتوحد الحمار الذي وضع عليه احتياجات الأخوة وفي الطريق التقى بالبربر النازلين من الجبل لاستقاء ماء. فلما رأوه أمسكوه طالبين منه أن يقدم ذبيحة لآلهتهم. رفض فهددوه بالسيف. عندئذ خاف الراهب وأنكر إيمانه أمامهم، وأخذ النبيذ وقدمه للأصنام، ثم أكل معهم من ضحاياهم. فلما رأوه قد خضع لهم تركوه.

شعر الراهب بخطيته، فمزق ثيابه، ولطم وجهه ونتف شعره، وعاد إلى الدير باكياً. وإذ علم الأب بخبره خرج للقائه باكياً بغزارة. فقال الابن لأبيه "أخطأت أيها الأب لدى الله ولديك، وخالفت مشورتك. لو أنني أطعتها ما حدث لي هذا.

وبخه الأب قائلاً بأن السيد المسيح قد جاء بنفسه ومعه ملائكته وكان حاملاً التاج وهم كانوا ينتظرون خروج نفسه... وإذ خاف رفع التاج عنه... فأشتد حزن الراهب وبكى بمرارة، لكن الأب ترفق به جداً وشجعه على الجهاد.

ومنذ تلك اللحظة كان يطيع أباه طاعة كاملة، وقد انفرد في قلاية ولم يعد يعاين أحداً سوى باخوم وتادرس وقليلين.

٤- <u>الفقر الاختياري وعدم محبة المقتنيات:</u>

يقضي نظام الشركة بعدم الملكية الخاصة، فإذ قبل الراهب باختياره أن يترك كل شيء لذلك فأن كل دينار يسلم لأقنوم الدير للصرف على احتياجات الدير.

ومن أقوال أبينا: الرهبان لابسو الزي المقدس المقيمون بالأديرة لا يليق بهم أن يقولوا "لي ولك ولفلان..." فجماعة الشركة ليس لهم أن يدعو شيئاً ملكاً خاصاً بأحدهم... وإلا فأنها لا تدعى "شركة" بل مجامع لصوص ومغائر مملوءة رذائل وسلب للأشياء المنذورة لله.

هكذا كان باخوم يهتم بتأكيد غربتنا على الأرض خاصة للرهبان، فليس للراهب أن يملك شيئاً خاصاً، بل وأكثر من هذا حدث أنه أنشأ في ديره هيكلاً للصلاة الجامعة وبنى أعمدة رائعة فيه، ولكنه خشى لئلا يسببهم هذا فندم على ما صنع وحاول تشويه جمالها (فتكون مبسطة لكنها لائقة بالصلاة وموضع عبادة).

وقد أعطى أبونا درساً لراهب موكل بخدمة الدير... إذ حدث في فترة جوع شديد حتى أنه لم يكن يوجد قمح في مدن كثيرة، فأعطى الأب للراهب مائة ديناراً وطلب منه أن يبحث عن قمح يشتريه للدير. فبحث الراهب كثيراً ولم يجد، وأخيراً وجد في مدينة "أرموتيم" أو "أرمنت" رجلاً صالحاً كان قد سمع عن القديس باخوميوس وشركته وكان لديه الحنطة التي للوالي "ديموس". فلما سأله الراهب عن القمح أجابه "لو كانت هذه الحنطة ملكي وكنت محتاجاً إليها لمنعتها من فم أولادي وأعطيتها لك. لأنني مشتاق أن أرى أبانا باخوم والأخوة الذين معه لما سمعته عنهم من السيرة الرضية لله. لكنها هي حنطة الوالي ديموس وهو لم يطلبها ولا يطلبها إلا في أوان البيدر". ثم قال له أنه إن أراد ليأخذ ما يريده كقرض حتى أوان البيدر. أما الأخ فلم يقبل أخذها كقرض إنما طلب منه– إن أراد– أن يبيع له منها. وأخيراً استقر الرأي على أن يبيع له بمائة دينار، ويعطيه بمائة دينار أخرى حنطة كقرض يرد في أوان البيدر.

فرح الأخ بهذا وعاد إلى الدير ومعه بمائتي دينار حنطة بسعر أرخص من سعر السوق. وإذ بلغ الخبر إلى الأب باخوم حزن جداً. ولما سأله الأخوة عن سبب حزنه قال "كيف لا أحزن على من يتبع هواه ويخالف ما أوصيته به ويطلب الزيادة والغنيمة ويميل إلى محبة الفضة، ويجعل إحسان الرب سبيلاً للشر، ويحضر لنا أكثر مما نحتاج، ويجعل علينا ديناً لا سبيل لنا بوفائه. وبالأجمال نفذ مشيئته الخاصة، وخالف أمر آبائه وأخوته؟!".

ثم طلب الأب من أحد الأخوة أن يرسل إليه طالباً منه ألا يأتي بالحنطة إلى الدير، بل ولا يأتي بحبة واحدة، ولا يلتقي بباخوم ما لم ينفذ هذا الأمر: أن يبيع الحنطة لأهل البلد بسعر السوق ويرد الباقي من الحنطة إلى صاحبه ثم يعود ويشتري الحنطة من السوق بالسعر المرتفع للدير بمائة دينار فقط.

فعاد الأخ إلى أرموتيم وأخبر الرجل بالأمر، فباع الحنطة بسعر ٥ أرادب بدينار (بينما أشتراه بسعر ١٣ أردب بدينار) ورد المائة دينار وما تبقى من الحنطة كفرق بين سعر البيع والشراء ثم عاد الأخ إلى الأب باخوم الذي قام بعزله عن هذه الخدمة.

هكذا كان يخاف باخوم لئلا يتسرب حب الفضة في داخل نفوس الرهبان.

ومما جاء في سيرته أنه حدث في إحدى المرات أن احتاج الدير إلى قمح، ولم يكن بالدير ما لا يشترون به. فصلى الأب إلى الرب ليدبر الأمر، وإذا برئيس المدينة يأتيهم ومعه قمح كثير... طالباً منهم أن يصلوا من أجل نفسه.

٥- **المحبة:**

كما كان أبونا يحب خلاص كل نفس، هكذا كان يتوق أن يرى كل أحد محباً لخلاص ونمو غيره. وقد حدث في أحد أديرة الراهبات أن رجلاً قرع على الباب يسأل إن كن يلزمن أن يعمل لهن شيئاً، إذ كان حائكاً. فلما قابلته إحدى الأخوات قالت له أنهن غير محتاجات إلى عمله.

رأت الأخت هذه المقابلة... وبفعل عدو الخير تشاجر الأختان يوماً، فأساءت الأخت الثانية إلى الأولى بكلمات جارحة لأنها كانت تكلم هذا الرجل....

بدأ البعض من الراهبات يصدقن الكلام أو يهزأن عليها، وإذ كانت الأخت شديدة الخجل بكت بمرارة... ومن كثرة خجلها خرجت سراً وألقت بنفسها في النهر سراً فاختفت وماتت.

علمت أختها بذلك، فحاربها شيطان اليأس، وإذ شعرت أنها ستطالب بنفس هذه التي هلكت، ونفوس أولئك الأخوات اللواتي قلقن بسبب الأمر خرجت سراً وألقت هي أيضاً بنفسها في النهر.

وإذ بلغ الخبر إلى الأب جاء للحال وحزن جداً بسببهما ورفض الصلاة عليهما أو عمل قداسات باسميهما لأنهما ماتا يائستين من مراحم الله... وفرض عقوبة تأديبية على الأخوات الأخريات لأنهن صدقن الإشاعة ولم يعملن على إيجاد السلام بينهما، فحرمهن من التناول سبع سنوات.

هكذا كان باخوم حازماً جداً في أمر محبة الأخوة والأخوات لبعضهم البعض في الرب.

+ + +

٤

معجزاتـــه

مفهومه للمعجزة

رأينا كيف كان باخوم لا يشتهي صنع المعجزات[١]، بل وكان يبث هذا الروح في أولاده... لأن المعجزة ليست هدفاً بل وسيلة تعلن حب الله لنا...

فباخوم لم يكن إلا إنساناً مؤمناً محباً، في حبه للبشرية يصلي من أجل المرضى فيهبهم الله شفاء. وكان على الدوام يطلب في صلواته إرادة الله وليس إرادته الذاتية....

وكان إذا مرض راهب، خاصة إذا كان قد تمتع بشركة عميقة مع الرب، لا يهتم بالصلاة من أجل شفائهن قدر ما كان يشجعه على قبول الألم بشكر، ويوجه أفكاره لتنشغل بشفاء الروح وانتظار الحياة الأبدية.

ولقد حدث أن راهباً مرض، وكان مرضه يعود إليه كل ثلاثة أيام. ومن شدة ألمه جاء إلى الأب باكياً يقول "هوذا أنت تشفي الكثير من العلمانيين، وأنا معك كل الوقت فلا تصلي من أجلي لكي أشفى من هذا المرض المؤلم؟!".

فأجابه الأب "العلمانيون عادة.... يميلون بالأكثر إلى صنع الخير بالشفاء الذي يصنعه الله معهم. أما نحن عبيد المسيح، فأننا نهتم بالراحة التي لا تفسد التي يهبها الله لنا في الدهر الآتي...".

حقاً كلما تعمق الإنسان في الشركة مع الرب يتلذذ بالآلام منتظراً الراحة الأبدية، أما المبتدئون فيزداد شركتهم مع الرب وتلامسه مع محبته بشفائه أجسادهم...

فبولس الذي كان بعصائبه ومناديله يشفي الله بها أمراض الكثيرين كان يصرخ من المرض والرب يشجعه "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل"...

نعود إلى هذا الأخ المريض الذي اشتد به المرض، فذهب بعض المسئولين في الدير يلحون على الأب أن يصلي من أجله.... فاستجاب لهم وبدأ يصلي، وإذ بصوت من السماء يسمع "لا تسأل من أجل راحة هذا الرجل الذي تصلي عليه. لأن الرب إنما جلب هذا التأديب لينقذه من فخاخ يجربه بها إبليس..." فكف الأب عن الصلاة من أجل جسده طالباً أن يهبه الرب الاحتمال ويكلل حياته بالشفاء الروحي.

---

(١) راجع ص ٣٥ وأيضاً راجع كتاب الحب الإلهي ص ٩٧١.

وإذ خرج باخوم من قلاية المريض، تعجبوا أنه خرج سريعاً دون أن يشفى المريض، فقال لهم "ألم تسمعوا الصوت؟" أجابوا بالنفي، عندئذ أخبروهم الذين كانوا معه عما سمعوه. فمجدوا الرب قائلين "عظيمة هي أعمال الرب، لأنه ذا جود ويهتم بطالبيه فلا يحدث شيئاً بدون أذنه".

من أجل هذا كان باخوم يعلم أولاده أن يهتموا بتلك المعجزات الثمينة. أن ينزع الله عمى عبدة الأوثان فتبصر عيونهم نور الحق، وأن ينطق الكذابين بالحق ويشفون من خرسهم عنه ونطقهم بالشر، ويهتموا بغير السالكين في طريق الرب أن تشفى أرجلهم الداخلية لتسير، ويتحول الزناة إلى طاهرين... هذا هو الشفاء الذي نبغيه أولاً.

أهم معجزاته(١)

١- **معرفة ألسنة أولاده:**

امتاز النظام الباخومي بأنه كان يشمل جماعات كثيرة من أجناس مختلفة، وكان يقيم الأب على كل جماعة رئيساً من نفس الجنس يتفاهم معهم. إلا أنه حدث أن جاءه رجل من روما يجيد اليونانية ولا يعرف القبطية.... وأراد أن يطلب إرشاداً في أمر يخص حياته من الأب باخوم. وإذ كان الأب لا يعرف اليونانية جاء بمترجم فرفض الأخ أن يبيح بأسراره بغير الأب.

استأذن الأب منه ودخل في قلايته باكياً أمام الرب يقول له "أيها الرب ضابط الكل. إن كنت لا أقدر أن أنفع الأخوة الذين ترسلهم إلي من آفاق الدنيا، وذلك لجهلي بألسنتهم وعدم معرفتي لغتهم، فما الفائدة من مجيئهم إلى هنا؟! فأنني أرغب من فيض إنعامك وتدفق إحساناتك أن تمن علي أيها الإله الصالح الرحوم بمعرفة ألسنتهم حتى أتحدث معهم لنفع نفوسهم".

وبعد الصلاة والسجود بخشوع وهبه الله أن يتحدث مع الأخ باليونانية كمن يجيدها...

هذه العطية (التكلم بالألسن) تظهر أنها تعطي بقصد للبنيان وليس بطريقة هوجاء كما تدعي بعض الطوائف إنه الروح يحل عليهم فيتحدثون في الصلاة بلغات لا يفهمها الناطق ولا السامع ولا يستفيد أحد منها... أنها بلا شك ودون أي تردد هذه الثانية هي ليست عطية الروح القدس – الإله الذي لا يعرف التشويش – بل من عمل الروح الشرير الذي يخدع ويحاول أن يقلد الروح.

٢- **شفائه من المرض**

ذكر عنه شينو في كتاب "قديسو مصر" أنه كثيراً ما كانت تنتابه حمى شديدة، ومع هذا لم يكن يكف عن الصوم بل يأكل مرة كل يومين أو كل ثلاثة أيام... وبسبب حبه لإلهه كان يقوم للعمل، وسرعان ما كانت تعود إليه صحته.

---

(١) اكتفيت بذكر أمثلة فقط.

٣- **شفاء نازفة دم:**

سمعت امرأة مريضة بنزف الدم عن باخوم وعمل الله على يديه فقالت في نفسها بأنها ولو رأته بعينيها تشفى. فأخبرت الأب ديوناسيوس صديق باخوم بما في قلبها. وإذ كانت متألمة جداً ذهب إلى الدير وتحدث مع صديقه بخصوص بناء منزل للضيافة خارج الدير ثم خرج مع باخوم من الدير لتحديد المكان... فجاءت المرأة من خلفه ولمست ثوبه وللحال انسحق قلب باخوم إلى الموت لأجل هذا الأمر، لأنه ما كان يقدر أن يطيق مجد الناس... أما هي فأخذت تمجد الله وتشكره من أجل أعماله في قديسيه.

٤- **شفاء فتاة بها شيطان**

كان لرجل ابنة بها شيطان، أحضرها إلى الدير ليصلي عليها، لكن المكلف بحراسة الدير منعها من الدخول إذ لم يكن يسمح للنساء بزيارة أدير الرهبان.... ولما دخل والد الفتاة والتقى بالأب انتهى الحديث بأن أخبره بأن ابنته ليست عذراء، وأنها إن قدمت توبة عما تفعله فيشفيها الرب، وفعلا اعترفت الفتاة بخطيتها وتابت...

٥- **شفاء مجنون به روح نجس**

جاء البعض برجل مجنون إلى الدير. فلما بلغوا الباب طلبوا الأب باخوم الذي خرج إليهم ومعه أخوين، ودار بين الأب والمجنون نقاشاً نذكر منه.

- ما اسمك؟
- اسمي خشبة.
- يا غير مفلح من أين تعرف قوة الخشبة؟

طرق المجنون رأسه نحو الأرض قائلاً: غلبتني بهذه الكلمة!....

- عرفني من الذي أعطاك هذا السلطان لكي تدخل في هذا البيت؟
- المصلوب هو الذي أعطاني السلطان.
- أيها الروح النجس. إن كان المصلوب هو الذي أعطاك السلطان لتسكن في هذا الإنسان، فأرني مسامير صليبه التي سمرت بها على الصليب.

وللحال صر بأسنانه قائلاً "وبهذا غلبتني وأخزيتني".

فبسط باخوم يده وصلى ثم انتهر الروح النجس فخرج منه.

٦- **عدم خوفه من الحيات والعقارب**

في تسليم حياته للرب لم يكن يخاف شيئاً، فإذا ما لدغته عقرب وهو يصلي لم يكن يتوقف عن الصلاة بل يداومها مع الأخوة وكان الرب يشفيه في الحال...

ولقد حدث في أحد الأيام أنه كان واقفاً يحدث الأخوة في الحقل مساء، وبعد ما انتهى من الحديث صلى جاثياً على ركبتيه وأخيراً طلب سراجاً، فلما جاءوا وجد بين رجليه ثعبانين كبيرين فقتلوهما وهما مندهشين لثبات هذا الرجل رغم إحساسه بوجودهما أثناء حديثه معهم.

٧- **تيبيس شجرة:**

كان في وسط دير منخوسين شجرة ضخمة، وكان بعض الأخوة الحديثين يصعدونها سراً ليأكلوا منها. وفي إحدى المرات رأى عليها شبحاً فعرف أنه شيطان الالنهم والحنجرة فطلب من البستاني أن يقطعها. لكن البستاني كان رجلاً صالحاً ولم تهن عليه فطلب منه أن يتركها فلم يرد طلبه، لكنه صلى عليها فيبست الشجرة بقوة الرب.

٨- **<u>الله يكشف له بعض الأسرار:</u>**

ذهب الطوباوي مرة إلى طبانسين، وإذ تحدث مع الأخوة أنهى حديثه قائلاً "أما سبب مجيئي فكائن في إناء خزفي". فلم يفهم الأخوة ما يقصده الأب بذلك. لكن إذ كان بينهم أخاً مباركاً ساذجاً واسمه إيلياس فهم ما قصده الأب إذ كان قد قطف تيناً وأخفاه في إناء خزفي ليأكله بعد الإفطار من صومه. فقام وأحضر الإناء معترفاً بما ارتكبه جهلاً طالباً السماح من الجميع... وللحال علق الأب قائلاً "أننا لا نرى الخفيات إذا شئنا، إنما كشف الله لي ذلك لا عن استحقاقي. إنما من أجل هذا الأخ حتى لا تستولي عليه شهوة الطعام ويهلكه الشيطان".

٩- **<u>تشكك أحد الشيوخ:</u>**

حدث أن ذهب الأب مع بعض الأخوة ليحفروا بئراً، فلما سمع شيخاً بذلك –وكان مبتدئاً في الرهبنة– لام باخوم قائلاً لقد خرج الأب وأخذه معه الأخوة ليهلكهم في البئر. وفي الليل إذ نام الشيخ رأى في حلم أنه واقف على البئر من أعلى، بينما الأخوة يعملون أسفل ومعهم شاب بهي المنظر ذو وقار. فقال الشاب لهم "خذوا مع الطاعة القوة" ثم قال للشيخ "وأنت خذ أيضاً روح عدم التصديق وقلة الإيمان".

فلما دق ناقوس نصف الليل ذهب الشيخ مع الأخوة واعترف أمامهم بكل ما حدث نادماً...

وهذا اِلأمر تكرر بصورة متعددة من شيوخ وأخوة كانوا يتشككون في الأب باخوم أنه كثير الوعظ والتعاليم وكانوا يتذمرون في داخلهم بسبب هذا.... لكن الرب كان يكشف للأب أفكارهم ويعطيهم دروساً بها يعودون إلى رشدهم وطاعتهم وخضوعهم للأب باخوم وتعاليمه.

١٠- **<u>معرفته بحقيقة الرهبان:</u>**

قلنا أنه كأب محب كان الله يكشف له الكثير من أمور الرهبان الداخلية وأفكارهم لأجل بنيانهم.... وقد جاء في سيرته أنه كان في أحد المجامع (بأتموسيس) راهب متنسك جداً، يصوم كثيراً فيأكل مرة كل يومين أو ثلاثة أيام، وفي كلامه يبدو عليه الوداعة والهدوء والاتضاع. فلما نظره الأخوة على هذا الحال قال بعضهم لبعض "إذا افتقدنا أبونا باخوم، فبلا شك سيقيم هذا الأخ المتعبد كثيراً كبيراً في الأخوة ليقوم أحوال الآخرين" وكان رئيس الدير يحزن جداً عند سماعه مثل هذه الأقوال، إذ يخشى أن يأخذه الأب باخوم ليقيمه رئيساً أو أباً في دير آخر....

وإذ حان مجيء الأب باخوم، الذي كان يتفقد أديرته على الأقل مرة كل عام... خرج الكل لاستقباله أما هو فاختفى...

فلما شعر الأخوة بهذا بدأوا يقولون "انظروا عظم أتضاع هذا الأخ لأنه لم يرد أن يخرج أستقبله حتى لا يكرمه أمام الأخوة لأجل أعماله الصالحة".

فلما دخل الطوباوي المجمع طلب الأخوة هذا الأخ ليأتي ويسلم عليه فلم يجدوه. وفي المساء وجدوه فألزموه بمقابلته. وللحال دعى باخوم رئيس الدير وأخوة كثيرين كبار وقال لهم "أين وجدتموه؟". قالوا "هذا رجل عظيم جداً. ليس فينا من يتنسك مثله، وبسبب كثرة عبادته انتشر بين الأخوة بأنه متى جاء أبونا باخوم سيقيمه كبيراً".

فقال لهم "أيها السذج يا من ليس فيكم إفراز حتى تعرفوا أصحاب اليمين من أصحاب الشمال. هذا الرجل أحد الذين قال عنهم مخلصنا في الإنجيل "احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الخراف وهم من داخل ذئاب خاطفة" فإن هذا فيه روح ذئب، وقتل كثيرين وهو لا يزال ماكث في النجاسات إلى اليوم. وهو ينسك في رياء. فإذا ما آمن له القلب بثقة حينئذ يقتل نفوس الآخرين بأعماله الشريرة. وعندما سلمت عليه كانت رائحته كرائحة الجيفة".

ثم طلب الأب أن يواجهوه بهذا الكلام. وإذ واجهوه اعترف بأن هذا كله حق....

وجاء في سيرته أيضاً أنه بينما كان يحدث الأخوة في أمور روحية، إذ به ينقبض فجأة ويقطع حديث ثم يعود إليه مرة أخرى. بعد ذلك قال للأقنوم "اذهب إلى قلاية الأخ فلان وأبصر ماذا يفعل لتكون شاهداً عليه". فذهب ووجده نائماً ثم عاد إلى الأب مخبراً إياه. فقال الأب للأخوة "إن هذا الأخ لم يأتي ليسمع حتى يمكنه محاربة العدو. ولا يبقى في قلايته مصلياً، لذلك فهو لا يستحق أن يكون راهباً.

وبالفعل لم تمض فترة قصيرة حتى أنفصل هذا الأخ عن الأخوة وترك الدير عائداً إلى العالم.

١١- <u>سماعه أرواح شريرة تصف حروبها</u>

قال الطوباوي باخوم أنه سمع صوتاً محسوساً، وأن الأرواح الشريرة تصف حروبها فقال بعضهم لبعض هذا:

قال أحدهم أنه يسر ويفرح حين يرى أنه عندما يبث بفكرة إلى راهب يقوم الراهب في الحال بتنفيذها.

وقال آخر "إني أحزن وأكتئب حين أبث فكرة لدى راهب فليس فقط لا يقبل المشورة بل ويقف بصرامة منتصباً للصلاة. فأهرب منه للحال كما من أتون نار. لذا أقلل زياراتي له.

وقال ثالث "أني بلطف أقدم بضائعي إلى الراهب، فتارة يقبلها وأخرى يهرب مني، وهذا هو دأبي مع كل الناس".

وقال رابع "إني أقاتل ولا أمل. وأكافح ولا أكل. فتارة أغلب وتارة أنهزم ثم أعاود بلا ملل".

١٢- رؤيته أرواح المنتقلين:

وفي أحد الأيام جاءه بعض الرهبان من دير بشينوفسكيون وقال له أن أخاً مريضاً جداً يريد مقابلته، فخرج الأب معهم وبعدما سار ما يقرب من ميلين توقف الأب ورفع نظره نحو السماء. فأخذ الأخوة يتعجلونه لأن الأخ مريض جداً. أما هو فقال لهم "والآن فأنني أعود إلى ديري وأنتم تمضون إلى ديركم بسلام، فأن الأخ قد مضى. لأنني عاينت نفسه المباركة تزف إلى الفردوس" ولما سألوه قال لهم أنه سمع في الجو صوتاً جميلاً ونغماً شجياً تترنم به نفس هذا الأخ وقد التفت حوله الملائكة مترنمة.

وفي مرة أخرى سمع تادرس مع أبيه صوت ترنيم فتساءل تادرس: ما هذا؟ أجابه الأب أن نفساً فاضلة طاهرة قد فارقت جسدها في هذه الساعة، والملائكة حولها ممسكون بها وهم يزفونها ممجدين الله لأجل خلاصها من أعراض طبعها وشر أعدائها (الشياطين).

ومرة أخرى إذ كان الطوباوي وتادرس ومعهما الأخوة وقد أنتقل أخ من الأخوة، بهت عقليهما. فلاحظ الأخوة هذا، وقال أحدهم: أنهما رأيا رؤية.... أما الأب فأجاب قائلاً "لا تمكنوا هذه الهواجس والأفكار فيكم وتلتمسوا هذه الأمور، لئلا تستعلن لكم رؤى خادعة...

١٣- نبواته بخصوص أثناسيوس

كان باخوم يحزن جداً من أجل مضايقات الأريوسيين للكنيسة، لكنه كان يقول أن الكنيسة بالصبر تستفيد من هذه التجارب.

وقد قال عند رؤيته لأثناسيوس "أن هذا البابا سيكابد آلاماً كثيرة في خدمة الديانة الحقة".

وذكر شينو أن أبانا قال "سيقام أثناسيوس على كرسي الإسكندرية، وسيقوم ضده كل جماعة الأشرار ويتهمونه باطلاً. وسيستغلون صغر سنه ويريدوا انقسام الكنيسة. ولكن الروح القدس يقول أن أثناسيوس عمود في كنيسة الله ونور قوي. سيتحمل اضطهادات كثيرة وشديدة ومكر الناس ومكائدهم، ولكن بفضل الله سينتصر على مكرهم ويعظ بالإنجيل بالحق إلى آخر لحظة من حياته.

١٤- رؤياه

جاء في سيرته رؤى كثيرة كان الله يظهرها لباخوم، منها ما سيكون عليه حال الأديرة الباخومية بعد انتقاله مباشرة من ازدهار ونمو... وذلك لتشجيعه.

وأخرى يكشف له ما سيؤول إليه فيما بعد من ركود وخمول وترك لوصايا الآباء.... وأنه بالكاد ينجو بعض منهم... وكن هذا يحزنه ويبكيه ويجعله دائم التعليم لأولاده....

وأظهر له الرب أيضاً رؤية بخصوص الفردوس والجحيم حتى تزداد نفسه جهاداً ومثابرة...

ومن رؤياه أيضاً أن رأى الرب يسوع جالساً يعلم ويفسر... وكثيراً ما كان يقوم ويعظ بنفس الكلمات التي سمعها... ويشهد البعض أنه في ذلك الوقت كانوا يرون قوة عجيبة عندما يتكلم باخوم...

وأخيراً نذكر أن الله لا يبخل على قديسيه بشيء ما دامت للبنيان وليس للتشويش...

٥

نياحتـــه

محاولات لقتله

انتشر خبر باخوم وسيرته العطرة وتجمع في أديرته آلاف الرهبان، وصارت أديرته مركز إشعاعات روحية... هذا كله أثار حسد بعض الأساقفة والرهبان فاجتمعوا في كنيسة أسنا وتشاوروا معاً على طرد الأخوة من الأديرة التي تتبع ابروشياتهم... ولما بدءوا في التنفيذ أرسلت الأديرة فوراً إلى الأب باخوم تخبره بالأمر. فأستدعى الكثير من الرهبان من جميع الأديرة والتف حوله أيضاً كثير من أهل القرى المجاورة لأديرته... وساروا إلى أسنا ليجتمع بهؤلاء الأساقفة الرهبان ويفحص معهم الأمر. وإذ سمعوا بالأمر خاف المجتمعون منه وممن التفوا حوله، فأرسلوا إليه بمكر يقولون له: تعال إلينا بمفردك إلى الكنيسة لنجتمع بك ونحدثك بما في قلوبنا وتعود بسلام. وإذ كان الأب قد مرض في الطريق أخبر رسلهم بمرضه، فأجابوه أن يحملوه على دابة ويأتون به إلى الكنيسة وهو مستريح. فقام الأب ومضى معهم دون أن يدري بما تكنه قلوبهم.

وإذ ذهب معهم إلى الكنيسة رأى أساقفة ورهبان ومعهم جنود، فعلم أنهم يريدون قتله. وفي تسليم كامل بين يدي الله صلى طالباً ألا يسمح الله بتشتيت الرهبان.

قال له الأساقفة وهو جالس على السرير "إننا سمعنا عنك أنك تقول عن نفسك أنك صعدت إلى السماء، وأنك تعرف ما في قلوب الناس". ثم أقاموا أخاً متوحداً شاهداً عليه بذلك. فقال الأخ في خجل "إنني سمعتك تقول عن نفسك أنك صعدت إلى السماء، وأنك تعرف ما في قلوب الناس". ثم أقاموا أخاً

متوحداً شاهداً عليه بذلك. فقال الأخ في خجل "إنني سمعتك تقول إن الرب يكشف لك ما في قلوب البشر إن كانوا صالحين أو أشراراً".

فأجابه الأب "لماذا تخجل أن تتكلم علانية؟! فإنني أقول الحق". ثم التفت إلى أساقفة وكانوا أربعة، منهم اثنين كانا عنده راهبين متوحدين قبلما يرسما اسمهما من قبل الأسقفية "فيلونس، أموي". هذان قالا "نحن نعرف أنك صديق وترى أرواح مرات كثيرة، لكننا لم نسمعك قط تقول أنك صعدت إلى السماء أو تعلم ما في قلوب البشر".

عن ذلك قال "هذا هو الحق اليقين. إنني لم أقل أنني أعرف بما في قلوب البشر، بل قلت أنه عندما كثر الأخوة قليلاً، أعطاني الله نعمة الإفراز لكي أعرف الأشرار من الصالحين في الأخوة. ولم أقل إني صعدت إلى السماء، بل قلت أن عقلي اختطف إلى الفردوس بأمر الرب لما كنت مريضاً. وأنا أقول الحق ولا أنكره ولو قدمت أمام ملوك".

فلما سمع الكهنة والرهبان هذا القول منه صرخوا في المجمع قائلين "هل سمعتم قط مثل هذا الكلام من أحد؟!" فأجابوا "إننا لم نسمع قط مثل هذا من آبائنا أو آباء آبائنا" وللوقت حدث في الكنيسة اضطراب شديد وصرخ الأساقفة قائلين "لا تضعوا أيديكم على أحد غير باخوم وحده، فلما رأى الأخوة المحيطين به ذلك اختطفه اثنان وخرجوا به من باب جانبي لم يكن يعرفه المجتمعون إذ كانوا قد أغلقوا أبواب الكنيسة.

وصار اضطراب شديد وصار المجمع يضرب الأخوة بالمطارق. أما الذين اختطفوا باخوم وخرجوا، فقد تقدمهم أخ علماني مستقيم القلب يدعى "صاوينا" هذا الأب قائلاً "كما جعلك الرب تشبع من خيرات الأرض، يهبك أيضاً الخيرات التي لا تفسد في الدهر الآتي[1]"....

رآهم بعض الحاقدين فأخذوا يرمونهم بالحجارة... لكن أخاً قال لهم "أما تخافون من الولاة وتجعلون انشقاقاً في المدينة؟" وللحال خافوا وهربوا.

وأخيراً عاد الأب إلى ديره، وخرج الأخوة من الكنيسة أكثرهم مجروحاً وثيابهم ملطخة بدمائهم... لكن الفرح ملأ قلبهم من أجل نجاة أبيهم...

وبهذه المناسبة نذكر أنه إذ كان الأب في دير بحنون جاءه رجل به شيطان، وقد حسده الشيطان بسبب ما بلغ إليه فأمسك الرجل بسكين وأراد قتل باخوم، لكن الأخوة التفوا حوله وخلصه الرب.....

(١) باع هذا الأخ ممتلكاته وترك كل شيء وترهب.

انتقاله

عاد باخوم إلى ديره، وإذ التقى بتادرس قال له "هوذا قد كمل اعتراف الشهادة التي قيل لي عنها أنه قد بقى لك شهادة قليلة من قبل أن يفتقدك الرب. والآن على أي الأحوال أظن أن يوم افتقادي قد قرب".

وفي نفس العام انتشر مرض الطاعون. وامتد إلى الأديرة الباخومية. فكان باخوم يتنقل بين الأديرة الباخومية. فكان باخوم يتنقل بين الأديرة يخدم المرضى ويشجعهم على الثبات في حياة الشكر... ويدفن المنتقلين.

وفي هذه الفترة انتقل أكثر من مائة أخ من كل دير، وانتقل بعض رؤساء الأديرة، وأخيراً مرض باخوم وساءت حالته، وكان تادرس يخدمه. وقد طال به المرض وانحل جسده... وبقى أربعين يوماً في المكان المخصص للمرضى....

ولما اشتد به المرض جداً بع أربعين يوماً – لم يكن قادراً أن يحتمل الثوب الذي عليه فطلب من تادرس أن يأتيه بثوب خفيف، ولما أحضر تادرس ثوباً خفيفاً عاد ولم يقبل خاشياً لئلا يظن أنه يميز نفسه من سائر أخوته فيعثر أحداً....

وقبل نياحته بثلاثة أيام أرسل إلى جميع المسئولين من الأخوة ورؤساء الأديرة، قائلاً لهم "ها أنا ماض في طريق الأرض كلها مثل آبائي. وأنتم عارفون بكل سيرتي وكيف سرت بينكم بكل أتضاع.... ولم أطلب راحة في شيء أكثر منكم، بل كنا جميعاً كانسان واحد في هذا الموضع المقدس.

وها أنا أقول –والرب شاهد على ضميري– أنني لا أتكلم بكبرياء وفخر، لأنني لا أكلمكم بما هو ظاهر لكم فحسب، بل وما هو مخفي، حتى بهذا تستريحوا وتطيب قلوبكم... هوذا الآن أسألكم أن تحفظوا كل الكلام الذي وضعته لكم وأوصيتكم به. لتنفذوه حتى تنالوا الحياة الدائمة والخيرات العديدة.

ومن خالف هذا باستهانة واستهتار دون أن يرجع ويتوب، فسيدينه الله في الدهر الآتي عن استهتاره.

وهذا قلته لكم لأنني لا أعرف متى تكون المحاكمة. إذ يأمر مخلصنا وربنا يسوع المسيح في الإنجيل قائلاً "اسهروا فأنكم لا تعرفون ذلك اليوم ولا تلك الساعة"....

وأنت تعرفون قصدي. فقد سرت بينكم دون أن انتهر أحداً بفظاظة كمن له سلطان، إنما كنت أجتهد من أجل خلاص نفوسكم فقط.

وأنني لم أنقل أحداً من موضع إلى آخر، أو من عمل إلى آخر ألا وأنا عالم أن هذا لخيره....

لم أكافئ أحداً شراً بشر، ولا لعنت إنساناً كان لعنني مضطجراً غاضباً إنما كنت أؤدب بدعة وطول أناة حتى لا يخطئ إلى الله الذي خلقه.

لم يعاتبني أحد فتذمرت، ولو كان هذا الشخص صغيراً، إنما كنت أقبل الكلام من أجل الرب، كما لو أن الرب أرسله لي.

ولم أمضي قط إلى مجمع أو موضع كمن له سلطان عليه. ولا طلبت دابة أركبها من موضع إلى آخر بل كنت أسير على رجلي بشكر... فأن كان أحدكم يجري ورائي بدابة ويطلب مني أن أركبها اسمع له إن كان جسدي ضعيفاً، أما إذا كان قوياً فما كنت أقبل.

أما بالنسبة للأكل والشرب أو ما أشبهه من راحات الجسد فأنتم لستم غير عارفين بها... أنتم تعلمون كيف كنت لا أهتم بها".

وفي ساعة نياحته كان الأخوة جالسين حوله، أما تادرس فكان يجلس بعيداً وقد أحنى رأسه على ركبتيه ودموعه تنهمر بغزارة...

وفيما هم على هذا الحال قال الأب في لحظاته الأخيرة على الأرض "ها أنتم ترون أن الرب قد افتقدني برحمته، وأنا منصرف عن هذا العالم مثل آبائي وأجدادي إلى الله الذي خلقني، وهو الذي جمعنا هنا مع بعضنا البعض لنفعل إرادته. فقولوا الآن يا أحبائي من تريدون أن يكون لكم أباً ويسوس بمعونة الله إخوانكم؟".

فلما سمعوا قوله هذا بكوا ولم يستطيعوا إجابته. وإذ عرف أن من فرط محبتهم له غير قادرين على الإجابة، استدعى راهباً بدير شينوفسكيون يدعى أوريوس رجلاً قوياً في الإيمان عظيماً في أعماله... وقال له "قل للأخوة من هو الذي يريدونه أن يكون أباً لهم؟!" فلما سأل الأخوة أجابوه وهم باكين متألمين "إن كان هذا لا بد أن يصيبنا، فنحن لا نعرف سوى الله وأنت فالشخص الذي تقيمه لنا، نسمع له بطيب قلب في كل ما يقوله لنا". فأجابهم قائلاً "إذ قد رددتم الأمر إلى الله وإلي، فأن بطرونيوس يستطيع الاهتمام بكم بمؤازرة الله له". فأجابوه "حسناً رأيت".

وإذ كان بطرونيوس في ذلك الوقت مريضاً، والأب يعلم بأتضاعه لذلك أرسل إليه يحذره لئلا يخالف أمر الأخوة فيما يريدونه منه.

هكذا لم ينم باخوم إلا بعد ما أطمئن على أولاده، مقدماً لهم حق اختيار أبيهم الجديد... وغذ ردوا إليه الأمر بمحبة وثقة دبر لهم أمورهم....

نعود إلى باخوم وهو في أنفاسه الأخيرة، فقد التفت إلى تادرس تلميذه ومد يده وأمسك بإصبعه جزءاً من لحيته. ثم قال له "إن رأيت يا تادرس عظامي مهملة غير محفوظة فأهتم بها وأحفظها"".

أجابه تادرس "يا سيدي الأب. أنني أصنع كل ما تأمرني به". وكان تادرس يظن أن أبانا قال هذا لئلا يأتي قوم ويسرقون جسده ويبنون عليه كنيسة كما كان يفعل الشعب بعظام الشهداء...

وكان باخوم لا يقبل هذه الطريقة... فهو يقبل أن تسمى الكنائس بأسماء الشهداء والقديسين، وأن تكرم عظام هؤلاء، لكن بحذر وبمفاهيم سليمة... أ،ن نقتدي بهم ونسلك على منوالهم ونطلب صلواتهم من أجلنا، ولا يقف الأمر عند هذا المظهر، ولا يغالى في أمر تكريمهم لئلا تتحول إلى عيادة لهم[1].

ثم كرر الأب الأمر ثانية قائلاً لتادرس "يا تادرس لا تترك جسدي في موضع يدفن فيه ولا تهمل أمر القوانين من الأخوة، لكن أيقظهم دائماً بناموس الله".

ثم كرر للمرة الثالثة....

ثم رسم نفسه بعلامة الصليب ثلاثة مرات وأسلم روحه للحال في يدي الله في ١٤ بشنس وهو في سن الستين، بعدما قضى ٢١ عاماً قبل الرهبنة و ٣٩ عاماً وهو راهب.

تنيح الأب ويد تادرس على عينيه كيوسف الذي أغمض عيني يعقوب. ويشهد كثيرون من الشيخ أنهم رأوا كثيرين من الأبرار القديسين حضروا يستقبلونه عند خروج نفسه من جسده.

اجتمع الأخوة جميعهم وسهروا الليل كله في الكنيسة بالصلوات والقرءات حتى الصباح. ولما جاء النهار قبلوا جسده وكفنوه ثم حملوه إلى الجبل حيث كانت مقابرهم....

وبعد دفنه عاد الأخوة إلى أديرتهم، عاد تادرس وفي صحبته ثلاثة أخوة فنقلوا جسده إلى موضع آخر حتى لا يعلم أحد بمكانه.

وجاء في سيرته أن أبانا تادرس كثيراً ما كان يخرج ليلاً إلى المكان الذي دفن فيه باخوم وكان يصلي إلى الله من أجل الأخوة طالباً أيضاً صلوات أبيه.

بركة صلوات الطوباوي باخوميوس تكون معنا آمين...

+ + +

(١) هذا الأمر موضوع اهتمام القديس باخوم ومن بعده القديس شنودة رئيس المتوحدين الذي كتب كثيراً عنه.

٦

الأديرة وأنظمتها الباخومية

الأديرة الباخومية[١]

١- **دير طبانسين:** وهو أول دير قام بأشائه باخوم يساعده القديس الأنبا بلامون المتوحد... وهو أول دير أنشأ في العالم كله.

فباخوم هو مؤسس نظام الشركة، حيث يعيش مجموعة رهبان في دير مبني تحت نظام دقيق معين... أما قبل ذلك الوقت فكان يعرف النظام الأنطوني حيث يقوم كل راهب في مغارة أو قلاية دون أي رباط إداري أو تنظيمي بين الرهبان. ونظام الجماعات (كما في وادي النطرون) حيث تنشأ عدة مغاير وقلايات في أماكن متفرقة حول كنيسة يجتمع فيها الرهبان بين حين وآخر تحت رعاية أب مثل مقاريوس الكبير...

هذا الدير قام بتوسيعه القديس باخوميوس بمساعدة أخيه يوحنا وبعض الأخوة الذين كانوا معهما.

ويرى البعض أنه بعد سنوات بلغ عدد الرهبان حوالي ٢٥٠٠ راهباً.

وقد غلب اسم "طبانسين" على أماكن أنبا باخوم حتى يدعى الرهبان الباخوميين بالرهبان الطبانسيين.

٢- **دير ببا[٢] Pbau**

سرعان ما التف حول باخوم كثيرون فضاق بهم المكان، فأخذ في بناء مجموعة أخرى من الأديرة في منطقتي قنا وطيبة... امتدت إلى أخميم شمالاً وإسنا جنوباً. وقد بلغت حوالي عشرة أديرة تسير على نظام واحد تحت رقابة مركزية بدير ...Pbau وبعد ذلك انتشرت الأديرة الباخومية حتى بلغت إلى قرب مدينة كانوب على ساحل الإسكندرية الشرقي.

لقد كان دير Pbau هو الدير الرئيسي.

ونلاحظ وجود اختلافات في أسماء الأديرة الباخومية، ولعل هذا راجع إلى كثرة إعادة الترجمة من القبطية إلى اللغات الأوروبية ثم إعادة ترجمتها إلى العربية. فبينما يذكر بلاديوس والدكتور عزيز سوريال بأن الدير المركزي هو دير Pbau تذكر السيرة التي قام بطبعها القمص عبد المسيح المسعودي بأن اسمه بافو.... ثم يعود نفس القمص في كتاب "تحفة السائلين" يتساءل أن كان هناك دير يدعى باسم "دير أدفو" بمنطقة أسوان وكان يدعى بالدير الكبير....

---

(١) ولما كان الهدف من هذا الكتاب هو الكشف عن عمل الرب في حياة باخوميوس... لذلك حاولت اختصار الكثير من الجوانب التاريخية..الخ.

(٢) ليست مدينة "ببا" الحالية.

لكن دير ادفو هذا (محافظة أسوان) ليس دير Pbau لأنه ليس في منطقة عمل باخوم.... إنما غالباً بني في وقت متأخر في حياة باخوميوس أو بعده....

٣- **<u>أديرة أخرى</u>**

يذكر الدكتور عزيز سوريال أسماء بعض الأديرة الباخومية الأخرى: دير موكوزس Mochosis، وأخرى في Thebeu وبانوبوليس Panapolis وتاس Tase وتسماني Tismanee وباخنوم Pachnoum ولاتوبوليس (إسنا).

ويذكر أسماءها القمص المسعودي... وقد تكون الإختلاف بينه وبين غيره ناجم عن أن البعض يذكر اسم البلد والآخر اسم الدير. وقد ذكر القمص ١٧ ديراً باخومياً بناهم باخوميوس أو أولاده... وهي:

١- دير طبانسين، ودير دوناسة (ديوناسة) ويرجح أنهما اسمين لدير واحد.

٢- دير بافو ودير أدفو ويرجح القمص أنهما دير واحد... لكن الحق أنه دير Pbau وهو الرئيسي كما رأينا.

٣- الدير المعروف بشينوفسيكون أي مرعى الوز أو مرعى البوز وهو في ضيعة شينوفسكيا. وهي الضيعة التي قبل فيها باخوم المعمودية. وقدبناه القديس أبو :نوخرس". وقد كان شيخاً ناسكاً جاء إلى باخوم ليسلم إليه هذا الدير الذي كان قد أنشأه... وقد كان واسعاً وفيه رهبان قليلين، فنقل إليه باخوم جماعة الرهبان الورعين الموجودين بدير طبانسين بعد أن رسم لهم مقدماً وأقنوماً وطلب منهم أن يعلموهم نظام الشركة.

٤- دير منخوسين.

٥- دير في تخوم إسنا... (ويرى القمص المسعودي أن باخوم لم يبن هذا الدير).

٦- دير عند بانوس أي أخميم.

٧- دير في جبل إسنا في موضع يدعى أبنوم، هذا بناه باخوم بناء على دعوة من ملاك الرب.

٨- دير بحنون: ويرى القمص المسعودي أن هذا الدير في حدود مدينة إسنا.

٩- دير كابور: ذكر أن تادرس عمر ديران ببارموبولس وآخر في أرموتيم (أرمنت)....

+ + +

النظام الباخومي

اتفق عامة الكتاب في تاريخ الرهبنة أن أصولها ظهرت في مصر منذ العصر الرسولي الأول... وقد قامت حملات رهبانية منظمة كثيرة، لكن خروجهم بعيداً عن العالم جعل تسجيلها أمراً صعباً. ومن هذه الحملات ما جاء في كتاب حياة القديسين Acta Scantarum تحت تاريخ ١٤ أبريل عن فرونتينوس الذي اصطحب سبعون مسيحياً إلى وادي النطرون ليعيشوا حياة رهبانية.

وجاء في سيرة أنبا بولافيل[١] أنه لم يكن قد ظهر شكل الرهبنة إنما كان البعض ينفرد بعيداً عن المدينة في مسكن يبنيه ويدعى ناسكاً.

وبظهور النظام الأنطوني ظهرت الرهبنة بصورة واضحة، وهو نظام العزلة التامة.

وإذ بدأت تظهر شخصيات كبيرة يلتف حولها تلاميذ ظهرت نظام الجماعات.

ورأينا في سيرة باخوم أنه أول مؤسس لنظام الشركة. هذا النظام لم يلغ النظامين السابقين، إنما باخوم نفسه كان رغم محبته لنظام الشركة لأنه يناسب الكثيرين، إلا أنه كان مرناً، متى رأى إنساناً قادراً على الوحدة، يهيئ له فرصة للتوحد دون أن يخضع للنظام الموضوع... إنما كثيراً ما كانوا يجتمعوا جماعة المتوحدين بالأب باخوم، يسترشدون به.....

وفي نفس الوقت نجد أنبا أنطونيوس يمدح نظام الشركة الباخومي أمام الأخ زكاوس (من تلاميذ باخوم) قائلاً بأن هذا العمل بإلهام من الله وأن نفسه ابتهجت جداً بسبب ذلك.

اللوح النحاسي

سبق أن رأينا أن ملاكاً ظهر له آمراً إياه أن يتخذ له أولاد ومعطياً إياه لوحاً نحاسياً نقشت عليها الوصايا التي يتبعها الرهبان وقد أوردها بلاديوس في "بستان الرهبان" وأوردها الدكتور عزيز بشيء قليل من التصرف.

١- دع الرجل (الراهب) يتناول من المأكل والمشرب ما يشاء. وعلى قدر قوة هؤلاء الرهبان مما يأكلون ويشربون تلزمهم بالعمل، ولا تنهاهم عن الكل ولا عن الصوم، أما الضعفاء والصائمون فتطالبهم بالأعمال الخفيفة.

٢- وعليك أن تقيم لهم القلالي يسكنونها معاً ثلاثة ثلاثة.

---

(١) عن كتاب تحفة السائلين في أديرة المصريين.

٣- وعليهم أن لا يناموا منبطحين على الأرض (بغير وسادة) لكن عليك أن تصنع لهم المقاعد حتى إذا ما استلقوا فوقها أمكنهم أن يستروا رؤوسهم عليها.

٤- وعليهم في أثناء الليل أن يلبسوا جلباباً بغير أكمام وأن يشدوا أوساطهم بحزام. ويجب أن يعطى لكل منهم طاقية لغطاء رأسه. وعليهم أن يتناولوا العشاء الرباني في يوم السبت وفي أول يوم من الأسبوع "يوم الأحد" وطواقيهم فوق رؤوسهم دون أن يكون عليهم أغطية أخرى وفي مقدمة كل طاقية صليب قرمزي.

٥- قسم الرهبان إلى أربع وعشرين رتبة وميز كل رتبة بحرف من الحروف الأبجدية من الألف إلى الأوميجا.

هذه القوانين مع نصائح شفوية ذكرها بلاديوس امتازت بالسهولة، حتى أن باخوم قال بأن هذه الأمور سهلة وقليلة، لكن الملاك عرفه بأنه يلزم أن تكون القوانين للضعفاء... وأما الذين يبلغون إلى درجة أعمق فليس لهم قانون...

وقد صارت هذه القوانين أساساً للقوانين الكثيرة التي وضعت تباعاً حسب حاجة تلك الأديرة التي سرعان ما نمت وصارت فراديس يسكنها ملائكة أرضيون أو قل بشر سمائيين.

ملخص الدستور الباخومي

١- يشترط فيمن يرغب في الانضمام إلى الأديرة الباخومية ألا يكون هارباً من المسئولية أو من العدالة، وأن يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار وذلك في بيت خاص بهم، يشرف عليهم شيخاً يهتم بهم إلى أن يذهبوا.

وفي هذه الفترة يتعلم القراءة والكتابة. وأن يحفظ عن ظهر قلبه عشرين مزموراً ورسالتين من رسائل العهد الجديد.

وعند قوله توزع ملابسه على الفقراء ويستعيض عنها بالزي الرهباني وينتقل من البيت الذي عند المدخل إلى قلالي الرهبان التي بداخل الدير.

٢- **<u>زي الرهبان:</u>** تمتاز بالبساطة وتتألف من جلباب بلا أكمام يصل إلى الركبتين وله حزام جلدي وتغطى الرأس بقلنسوة وعلى كتفيه وظهره يعلق فروة من فراء الخراف أو الماعز، ويضع عليها عباءة فضفاضة تحجب جزء من جبينه وتزداد بصليب يكشف بلونه عن الدير الذي ينتمهي إليه.

وفي قدميه يحتذي بصندل مفتوح.

هذه الملابس كاملة يلبسها خارج الدير عند سفره، أما داخل الدير فيكتفي بارتداء الجلباب القصير والحزام والطاقية.

ويلاحظ أنه ما كان للراهب أن يقتني غير الثوب الذي له، فإذا أراد غسله يسلمه إلى الوكيل المسئول عن الثياب ويأخذ عوضه إلى أن يرده له.

٣- **<u>الطعام:</u>** يقدم طعام جماعي في الظهر والمساء، والحضور غير إلزامي. وهو يتكون من خبز وخضر وحساء وجبن وفاكهة، ولا يأكلون اللحوم ولا يشربون النبيذ أو الخمر إلا في حالة المرض.

يدخلون القاعة حفاة حتى لا يحدثون صوتاً، وفي أعلى القاعة يقرأ أحدهم فصلاً من الكتاب المقدس.

٤- **النوم:** عثر الباحثون على بقايا دير القديس سمعان العمودي (الأنبا هيدرة) على الجبل المقابل لأسوان نجد أن كل قلاية بها ثلاث مصاطب لكل منها رأس مرتفعة من الطين على شكل وسادة... وهذه تنطق على ما جاء في الوصايا الست.

ولم يكن يسمح للراهب بالنوم إلا في الهزيع الأول، يقوم بعد ذلك ليصلي ويسبح حتى الصباح.

ويسمح لهم بالنوم على سطوح القلالي في الصيف.

٥- **العمل اليدوي:** العمل اليدوي إجباري حتى بالنسبة لرؤساء الأديرة، فمن لا يعمل لا يأكل هذا من جانب، ومن جانب آخر فأن العمل له بركاته الروحية.

كانوا يبيعون أعمالهم اليدوية لسد احتياجات الدير والإحسان على المحتاجين.

٦- **التعليم:** معرفة القراءة والكتابة شرطاً أساسياً في الانضمام في الأديرة الباخومية.

يقدم لراغبي الرهبنة ثلاث دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة من النهار. أما الذين ترهبوا فيحضرون دروساً في التفسير والتعاليم الإلهية يومي الأربعاء والجمعة... هذا جعل من الأديرة مراكزاً للعلم والفضيلة. وكانت مكتبات الأديرة مفتوحة لكل راغب في القراءة.

٧- **العبادة:** (أ) عبادة جماعية يحضرها جميع الرهبان في الصباح والظهر والمساء.

(ب) عبادة انفرادية، أمرها موكل للراهب في صومعته تحت إرشاد أبيه الروحي.

(جـ) يقام القداس الإلهي يومي السبت والأحد ليتناول الرهبان من الأسرار المقدسة.

٨- **العقاب:** وهو ضروري في نظام الشركة، لأجل نفع المذنب ومن هم حوله. وهو ثلاث درجات:

(أ) اللوم والتوبيخ العلني والصوم وهذه للأخطاء مثل الضحك والنظر يميناً وشمالاً أثناء الأكل...الخ.

(ب) الضرب وحبس الراهب في صومعته، وذلك للمتذمرين.

(جـ) الحرمان والطرد من الدير لمن لا يرجى فيهم إصلاح مثل المتشبثين في العصيان.

٩- **الإدارة:** وهي مقسمة إلى:-

(أ) إدارة محلية لكل دير. وتوكل إلى رئيس الدير، ولكل رئيس نائب يساعده في الإشراف على الأعمال اليومية العادية. ولكل دير أمين مخزن "ربيتة"، وأيضاً أمين مكتبة...

ولكل فئة من فئات العاملين من الخبازين والنساخ... رئيساً منهم يشرف عليهم.

ولما كثر عدد الرهبان وتنوعوا استخدم نظام الأسر لكل أسرة رئيس من جنسها: سريان ويونان ولاتين...الخ يقدر على التفاهم مع بني جنسه وإرشادهم.

ويشهد الكثيرون بأن هذا النظام "الأسر" قد ورثته الجامعات في العصور الوسطى.

ويشهد الكثيرون بأن هذا النظام "الأسر" قد ورثته الجامعات في العصور الوسطى.

وكان كل ٣ أو ٤ أديرة متجاورة يكونون بما يسمى القبيلة يشترك رؤسائهم في انتخاب أحدهم رئيساً عليهم... وهؤلاء بدورهم يخضعون مباشرة للرئيس العام.

(ب) **<u>الإدارة المركزية:</u>** تحت قيادة مركزية محكمة تصدر عن الدير الرئيسي Pbau. ويتم الأشراف بطريقين.

+ الزيارة إذ كان الرئيس العام يتنقل بين الأديرة ليعلم بدقائق أمورها ويسد احتياجاتها.

+ عقد اجتماعين عامين في كل سنة في دير Pbau أو الدير الذي به الرئاسة العليا إذ انتقلت إلى غيره. ويعقد الاجتماع الأول في فترة القيامة للاحتفال بعيد الصعود، والثاني يعقد في ٢٢ مسرى لبحث أحوال الأديرة الداخلية وتقديم تقارير خاصة بكل دير ثم يعلن الرئيس العام أسماء الؤساء الفرعيين الجدد كما يعلن حركات التنقل بينهم. وأخيراً في جلسة ختامية يحضرها جميع الرهبان الباخوميين يصلون صلاة جماعية في مشهد رهيب طالبين الصفح والغفران ويبارك الرئيس الجميع.

١٠- هناك أيضاً نظم خاصة بالمرضى وإضافة الغرباء...الخ.

+ + +

النظام الباخومي في العالم

لم يقف النظام الباخومي على انتشاره في مصر فحسب بل ترعرعت شجرته في العالم كله.

فباسيليوس الكبير الذي يقترن اسمه بأديرة أثوس في اليونان، أدخل هناك نظام الشركة الباخومية، إذ عاش عدة سنين في أديرته بالصعيد.

وقام القديس ايرونيموس (جيروم) بترجمة القوانين الباخومية وآثارها إلى اللاتينية عام ٤٠٤م، ونشرها بين الرهبان الإيطاليين.

وقام يوحنا كاسيان بنقل سير الآباء المصريين وأقوالهم وأنظمتهم في ٤ مجلدات في النصف الأول من القرن الخامس لاستعمالها بين الرهبان المقيمين بقفار غرب أوروبا وخاصة جنوب فرنسا، وحاول تطبيقها في الديرين اللذين أسسهما قرب مرسيليا وتولى إدارتهما.

وترجم ديونسيوس الصغير المتوفي سنة ٥٤٥ حياة باخوم وأنظمته إلى اللاتينية عن الإغريقيين.

وفي القرن السادس حذا بنديكت حذو القديس أنبا باخوم في تنظيمه للرهبنة البندكتية فأن الكثير من قوانينه أخذت حرفياً من قوانين باخوم. وإن كان قد اختلف عنه في عدم تطبيق النظام المركزي مما أدى إلى انفصال أديرته عن بعضها البعض. وقد عالج هذا النقص الراهب برنو في القرن العاشر.

+ + +

أديرة الراهبات الباخومية

سمعت مريم أخت باخوم عن أخبار أخيها وسيرته، فاستدلت عليه وذهبت إلى الدير (طبانسين) وعرفت البواب نفسها وطلبت منه أن يخبر أخاها عن وجودها.

فلما أخبر باخوم بأمرها قال له أن يجيبها هكذا "كفى أن تعلمي أنني حي فأنه لا حاجة لأن تراني. لكن إن شئت أن تشاركينني سيرتي وعملي، فأنني مستعد أن أجعل الأخوة يصلحون لك مسكناً. وأني لواثق في الله من أن كثيرات سيقتدين بك ويسكن معك".

وإذ سمعت مريم هذا الكلام دهشت جداً وانسحق قلبها واشتاقت أن تكون هكذا كأخيها. فبنى لها قلاية منفردة بجوار دير طبانسين، وسرعان ما التف حولها كثيرات وصارت مريم رئيسة عليهن. وتعتبر هذه أول جماعة منظمة من الراهبات لهن دير.

وهذا لا يعني أن الرهبنة لم تكن معروفة بين الفتيات، بل كانت لعذارى مصر مكانة خاصة في العبادة والتنسك منذ العصور الأولى للمسيحية. وقد سبق أن ترك أنطونيوس أخته عند جماعة من المتبتلات، لكن لم يكن لهن أديرة، إنما كن يسكن في بيوتهن إما منفردات أو مجتمعات...

وكان للدير شيخ وقور يقوم بوعظهن ويعرفهن القوانين الديرية الباخومية.

ولم يكن يسمح للرهبان أن يدخلوا أديرة الراهبات، إنما يدخل الكاهن والشماس فقط.

وإذ جاءت كثيرات من أخوات ووالدات وقريبات الرهبان إلى الدير.. صار يسمح لبعض الرهبان المبتدئين أن يزوروا قريباتهم على أن يرسل مع الراهب تلميذه الذي يقوم بالاتصال بالشيخ وبالتالي يتصل الشيخ بالأم رئيسة الدير، وهذه ترسل عجوزاً محتشمة مع الراهب عند زيارته لقريبته.

وإذ احتاج الدير إلى عمل يقوم به بعض الرهبان مثل أعمال البناء أو النجارة... الخ فأنه كان يرسل إليهن رهبان أتقياء يطمئن الرئيس قلبه عليهم، على أن يرافقهم في عملهم الشيخ الوقور حتى إنجاز العمل.

وعند وفاة إحدى الراهبات، كانت الأمهات يكفنها ويرسل الأب إليهن القس والمصلين ليصلوا على الراهبة على أن يصلي الرجال في جانب والراهبات في جانب آخر. ثم يوضع الجسد على عجلة تسير بها إلى خارج الدير حيث تدفن ويتبعها المصلون بالمزامير والتراتيل.

وكانوا يدفنون بعض الراهبات في مدافن منفردة داخل الدير.

وقد بلغ عدد الراهبات في الدير أربعمائة.

+ + +

٧

صور من أولاد باخوميوس

تلاميذ باخوم

فاحت رائحة الرب يسوع الذكية في حياة باخوميوس، فأنجذب الكثيرون من بقاع المسكونة يتتلمذون على يديه....

جاء الصبي النشيط، والشيخ الوقور.

جاء إلى الأديرة متعلمون، وأيضاً أميون بسطاء.

التف حوله رجال كثيرون وتاقت عذارى كثيرات الإقتداء به.

وفي هذا كله لم يصب تلاميذه في قالب من خيال ذهنه، ليكونوا صورة لباخوم... إنما قدم لهم الرب يسوع ليكون كل منهم سالكاً حسب مواهبه الشخصية التي وهبه الرب إياها. لهذا وإن كان المبتدئون يخضعون جميعاً للنظم والقوانين الديرية طاعة كاملة، إلا أنه متى تكشفت له مواهب إنسان ينميها فيه. فإن أحب إنسان العزلة والوحدة وكان ذلك صالحاً له، أعطاه الفرصة لهذا. وإن كان لأحد أشواق القراءة والبحث والدراسة ساعده في ذلك. وإن كانت لأحد موهبة النسك والتقشف خفف عنه الأعمال اليدوية (دون أن يلغيها) لكي يهيئ له فرصة النمو.

لقد خلق الروح القدس على يدي باخوم شخصيات متنوعة، أغصاناً حية مثمرة في الكرمة الحقيقية.

١-الأب بطرونيوس

كان بطرونيوس من كبار منطقة اشمين، وكان أبواه غنيين جداً. وإذ كان محباً للاختلاء مع الله بنى لنفسه ديراً في أرض والديه وسماه "أتواوي"، فجذبت سيرته الكثيرين للتعبد معه.

ولما سمع عن نظام الشركة أرسل إلى باخوم قائلاً "اجعلني مستحقاً أن تأتي إلى أيها المحب للإله لكي نكون تحت ظل الشركة المقدسة التي وهبت لك من السماء". إليه باخوم

ومعه بعض الأخوة ورتب الدير حسب النظام الباخومي. وقلده رئاسة الدير والاشراف على ديرين قريبين منه. وفي أثناء غيابه أقام أنياس رئيساً على الدير.

وجاء في سيرة أبينا باخوم أن بطرونيوس ذهب إلى أبينا وتوسل إليه أن يسمح له بالخدمة أثناء المائدة، ليسقي الرهبان، وكان يسجد لكل شخص عند خروجه من حجرة الأكل طالباً الصلاة عليه.

وبقى على هذه الحال ثلاث سنوات إلى أن أمره الأب أن يجلس مع الأخوة أثناء الأكل، فأطاع وترك هذه الخدمة لغيره.

وكان مجاهداً في الصلاة والنسك والنمو في كل عمل صالح وقد استطاع أن يجذب والده وأخوه وبعض أقاربه وأصدقائه إلى الحياة الرهبانية بعدما سلموا كل ممتلكاتهم للأديرة.

ولقد رأينا كيف سلم له باخوم الرئاسة العامة للأديرة قبيل نياحته، وقد اضطر إلى قبولها طاعة لأبيه. لكنه لم تمض أيام قليلة حتى اشتد به المرض، فطلب من الأخوة أن يختاروا أباً لهم وعرض عليهم أورسيوس ليكون عوضاً عنه، ثم أسلم حياته الطاهرة في يدي الله.

بركة صلوات هذا الآب تكون معنا. آمين.

+ + +

٢ - الأب أورسيوس

تتلمذ أورسيوس على يدي الأب باخوميوس، الذي أحبه جداً من أجل اتضاعه ونموه، الأمر الذي جعله يقيمه رئيساً على دير شينوفسكيا وهو بعد صغير السن.

تذمر بعض القدامى بسبب هذا التصرف، فأرسل إليهم باخوم قائلاً:

"لا تظنوا أن ملكوت السموات هو للقدامى الأولين وحدهم بل ولغيرهم أيضاً.

والأخ القديم في الرهبنة متى تذمر على أخيه ولحقه فكر كبرياء أو استهانة، فإنه يفقد أقدميته، ويتلف تعبه، إذ لم يكن بعد قد أتقن علم الرهبنة الذي هو الاتضاع والمحبة. الله لا يطلب منا قدم وجودنا

وأقامتنا في الدير وكثرة سنيننا، إنما يريد منا العمل بوصاياه التي أولها المحبة ثم الطاعة والاتضاع والوداعة وباقي الفضائل التي تجمعها كلها مخافة الله.

ما فائدة أقدميتي دون أن أنجح؟!. إنها تصير عاراً على وأنا أقول لكم قولاً محققاً يقيناً أن أورسيوس الغرس المبتدئ..... قد ازدهر ونما، صار مصباحاً ذهبياً وضياءً زاهراً وكوكباً بهياً منيراً...".

وقد اختير هذا الأب رئيساً عاماً بعد بطرونيوس، وإذ علم بهذا الأمر بكى بكاء مراً لشهوره بثقل المسئولية.

وقد سار على منوال أبيه باخوم فكان يزور الأديرة ويتفقد أحوال أخوته. وكان يحدثهم ببساطة وأمثلة وكان له تأثير على قلوب أخوته.

وحدث أنه لما عاد البابا أثناسيوس الرسولي من القسطنطينية إلى الإسكندرية، أنه بدأت الوفود تأتي إليه للسلام عليه. وإذ ذهب بعض رهبان دير Pbau إلى البابا مروا في طريقهم على القديس أنطونيوس، وإذ ألتقوا به سألهم عن باخوميوس فبكوا. فقال لهم "لا تبكوا لأنكم كلكم بنعمة الله وصلوات أبيكم قد صرتم باخوميين. وبالحقيقة أقول لكم أنه قد خدم الرب خدمة كبيرة في جمعة هذه الجماعات الوفيرة، وصار مصباحاً نيراً يضيء في الظلام".

أجابه ألب زكاوس رئيس دوناسة "أنت أيها الأب هو مصباح هذا الجيل وهذا العالم، إذ شاع خبرك وتمجد الله بحسن سيرتك حتى في وسط قصور الملوك".

أجابه الأب "اعلم أيها الأخ زكاوس أنه في ابتداء رهبنتي لم يكن قد ارتسم نظام ألأديرة. إلى أن ظهر باخوميوس وصنع هذا العمل العظيم بإلهام الله له". ثم سألهم عمن خلفه.

وإذ علم أن بطرونيوس قد خلفه، لكنه انتقل بعد أيام قليلة وخلفه الأب أورسيوس فرح جداً لأنه كان يعلم الكثير عن حياة الأب أورسيوس.

نعود إلى هذا الأب الذي اهتم بأحوال الرهبان، واتسعت الأديرة في أيامه. حتى قام ايلونيوس بوازع شيطاني راغباً الانفصال بديره عن المركز الرئيسي. كما بدأت هذه الفكرة تهاجم بعض رؤساء الأديرة، ألا وهي الاستقلال بأديرتهم. لكن الأب أورسيوس كان يسهر ويجاهد وهو حزين جداً لما يبثه عدو الخير، وكان يصلي بدموع معاتباً الرب قائلاً بأنه لم يكن يشتاق قط أن يكون رئيساً، فكيف يسمح الله بهذا؟!

وفي ليلة بعد صلاة منسكبة رأى رؤى تخبره بأن يسلم الرئاسة لتادرس، ففرح جداً لأنه كان يحب تادرس من أجل اتضاعه.

أبلغ رؤساء الأديرة بهذا، وكان تادرس محبوباً جداً من الجميع، فقبل الذين رغبوا في الانفصال رئاسة تادرس.

فترك الأب الدير الرئيسي وذهب ليلاً إلى دير الشنوفسكيا ليقيم هناك. فأخذ الرؤساء تادرس ونصبوه رئيساً قسراً، لكنه لم يقبل أن يأكل أو يشرب حتى يلتقي بالأب أورسيوس، وبعدما التقيا، بعد إلحاح شديد، ذكره أورسيوس بالحديث الذي نطق به باخوم قبيل انتقاله[1]، أن يحفظ عظام باخوم، قائلاً

له أن العظام تشير إلى هؤلاء الأخوة الذين تبلبلت أفكارهم.... وأخيراً قبل الرئاسة، على أنه كان يعتبر نفسه واحداً من الرهبان ولا يصنع أمراً إلا بعد استشارة الأب أورسيوس.

عاد المنشقون ورجعت الحياة الديرية إلى سلامها، إلى أن انتقل تادرس وعاد الأب أورسيوس إلى رتبته. وقد شعر الآباء المنشقون أنهم قد أحزنزا تادرس جداً، فندموا على ما صنعوا وخضعوا للأب أورسيوس، هذا الذي كان وديعاً جداً محباً لخلاص كل نفس. وكان الرب يقويه إلى أن تتيح بسلام.

بركة صلوات هذا الآب تكون معنا. آمين.

+ + +

٣- الأب تادرس

في ذات يوم تنبأ الأب باخوميوس أن شاباً صغيراً سيأتي إلى الدير سيكون يوماً ما خليفته في إدارة الأديرة، إذ قال لهم "إننا أرسلنا إلى مدينة لاتوبوليس (إسنا) أخانا باكيسيوس للعناية بالمرضى، وقد أخطرني ملاك الرب للحال أنه سيرجع هذه الليلة ومعه إناء مختار وهو صبي يافع عمره حوالي ١٣ أو ١٤ سنة ويدعى اسمه تادرس". وقد حدث فعلاً أن رجع الأخ ومعه هذا الصبي المبارك. وهذه هي سيرة هذا الصبي.

طفولتـه

ولد نحو سنة ٣٢٣ في عائلة شريفة غنية، وكان أبوه أرخناً لذلك كان مهتماً بتعليمه الكتب، وأمه كانت مؤمنة وكانت تحب تادرس أكثر من جميع أخوته من أجل ميوله الدينية.

وفي عيد الظهور الإلهي اعتادت بعض العائلات أن تقيم الحفلات وتتبارى في أنواع المأكولات والمشروبات. وإذ كان ثيئودورس في ذلك الوقت في الثانية عشرة من عمره بدأ يفكر في ذلك القصر الفخم الذي يعيش فيه مع عائلته وتلك النفائس التي يمتلكها والده، ونظر إلى تلك الوليمة، فوقف يحدث نفسه قائلاً:

يا نفسي، إنك إن تمتعت بهذه الخيرات الحسية والأطعمة الجسدية وتلذذت ههنا، لن تحظي بالنعم الدهرية".

ثم أخذ له ركناً في جانب من جوانب القصر، في مكان لا يعرفه أحد، وركع وأخذ يصلي بدموع غزيرة قائلاً "أيها القدوس، العالم برغبات النفوس، إنني عزمت بخالص نيتي أن أفعل حسب رضاك، إذ ليس لي إله سواك. وإنني لا أشاء هذه الملذات العالمية، ولا أوثر الأشياء الحسية، ولا أريد شيئاً من الأمور المرئية، إنما طلبتي كلها هي أنت. وذلك كقول المرتل: واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي، لكي أنظر نعيم الرب وأتفرس في هيكله المقدس. فأرشدني أيها العالم بالأسرار والخفايا".

وهكذا استمر تادرس يبكي بمرارة في صلاته، وإذ كانت أمه تبحث عنه وجدته على هذه الحال، فسألته عن سبب بكائه؛ أما هو فلم يجبها. وإذ ألحت عليه أن يأتي ويأكل معهم رفض محتجاً بأنه مريض... ثم انفرد للصلاة حتى المساء.

رهبنته

التهبت اشتياقات تادرس نحو عشرة الرب والتسليم المطلق لحياته بين يدي عريس نفسه. فكان يقرأ عن سير الآباء الرهبان المتوحدين ويقتدي بهم... وبقى على هذا الحال يزداد قلبه اشتياقاً نحو الحياة الرهبانية... وأخيراً ذهب إلى أحد الأديرة التي يقطنها بعض النساك الأبرار... وهو دير صغير خارج قريته.

وهناك في الدير انفرد في عبادته وكان ينمو يوماً فيوم، وكان الأخوة يحبونه متعجبين من حياته إذ وهبه الله نعمة وحكمة وإتضاعاً وخوفاً إلهياً.

سماعه عن الأب باخوم

اعتاد الأخوة أن يجتمعوا كل عشية بعد الأكل يتحدثون معاً من الكتب المقدسة وسير القديسين. وإذ كان أحد رهبان هذا الدير أمسى عليه الليل عند دوناسة بات هناك وكان القديس باخوم في دوناسة في تلك الليلة... فسمع الراهب القديس، وإذ عاد إلى ديره حدث الأخوة في اجتماعهم الليلي هذا عن ما سمعه ورآه، وكان تادرس ينصت إلى أقواله.

أعجب الأخوة مما كان يرويه هذا الأخ عن باخوم وتعاليمه.

أما تادرس فابتهجت نفسه وصلى إلى الله ألا يحرمه من أن يسمح بأن يكون تلميذاً لباخوم... لكنه كان مسلماً المشيئة لله ليفعل ما يحسن في عينيه.

فرغ تادرس من صلاته، لكنه لم يستطع أن ينام، ولا غمضت عيناه، بل بين حين وآخر كان يقف مصلياً ببكاء راجياً الرب أن يسمح له برؤية القديس باخوم.

وفي الصباح أسرع تادرس إلى الأخ الذي تكلم بالليل عن باخوم وأخذ يسأله عن سيرته، فأجابه الأخ "أما عن تعب هذا الرجل، فعلى ما سمعت أنه كثير جداً، بل رأس أعماله هو هذا أن أن كل صبي يمضي إليه يترهب ويسلك عنده يجتهد كل ما في طاقته أن يحفظه بنعمة الله بغير خطية طاهراً".

طلب تادرس من الأخ أن يخبره عن نظم الأديرة وقوانينها فأخبره.

وإذ سمع بذلك كان يداوم الصلاة لكي يهيأ الله أمر بقائه بباخوم قائلاً "أيها الرحوم، يا من تستجيب لكل طالب. اجعلني أهلاً أن ألتقي بعبدك، وأن أستحق أن أعرفك على يديه".

وفي ذات يوم مرض تادرس فأتى إليه والديه بأطعمة إلى الدير، أما هو فلم يقبل خشية مخالفة القوانين التي سمعها من الأخ الخاصة بالنظام الباخومي.

وإذ اشتد به المرض أخذه أبواه إلى المنزل دون أن يشعر بسبب ثقل المرض. فلما عاد إلى وعيه قدموا له الطعام، فأصر ألا يأكل ولو إلى الموت ما لم يردوه إلى الدير، فاضطرا إلى إرجاعه، وصار الأخوة يخدمونه حتى سمح الله له بالشفاء.

لقاؤه بأبينا باخوم

منذ سمع الصبي تادرس عن باخوم وأنظمته وهو لا يكف في الدير عن الصلاة المستمرة لكي يهيئ الله له فرصة اللقاء بالقديس باخوم.

وبعد أربعة شهور جاء إلى الدير أخاً ناسكاً من شركة القديس باخوم اسمه باكيسيوس، وكان عجيباً في سيرته وصلواته، فلما رآه تادرس شعر أن الرب أرسله إليه لكي يقوم بتوصيله إلى باخوميوس.

فاتح تادرس الأب في الأمر، فلما سمع منه أمره خاف أولاً بسبب والديه. وإذ أراد الأخ أن يعود إلى ديره ركب مركباً بالنيل، فكان الصبي تادرس يتبع المركب على الشاطئ.

وإذ رأى الذين في المركب هذا المنظر أخبروا باكيسيوس الناسك، فأضطر أن يأخذه معه....

وصل الاثنان إلى الدير، فدخل باكيسيوس إلى باخوم يخبره بالأمر، فأذن لتادرس بمقابلته إذ كان يتوقع مجيئه كما رأينا...

رأى تادرس الأب باخوم، فسقط على الأرض باكياً، وهو يقبل قدمي باخوم... فقال له الأب "لا تبكي يا ابني فأن ذاك الذي لأجله هربت وإليه التجأت أي الرب يسوع المسيح، هو يكلل جميع ما رسمته في قلبك بالنجاح"... وكان تادرس في ذلك الوقت في حوالي الرابعة عشر من عمره.

جهاده

منذ اللحظة التي التقى فيها تادرس بباخوم. وهو لا يكف عن طاعة أبيه طاعة كاملة، متدرباً على حياة الإيمان العامل الحي. فلم يتأخر قط عن صلوات نصف الليل منذ حداثته، وأن يجاهد جهاد الشيوخ المختبرين... حتى صار قدوة حية في وسط الدير...

١- **<u>طاعته لأبيه:</u>** تعلقت نفس تادرس بأبيه وأحبه جداً، فكان يلازمه كثيراً، والمطيع له في كل أمر. وقد تعمد باخوم أحياناً أن يأمره بشيء فإذا ما نفذه يوبخه. فكان تادرس لا يتذمر بل يقول في نفسه أنه لم يفهم ما قصده الأب، أو أن الأب كان مسبياً مع الله فنسى، أو أنه أراد تأديبه بسبب اعوجاج حياته... لهذا كان يقبل التوبيخ برضى وسرور.

ففي ذات يوم احتاج المجمع إلى خبز، فقال له باخوم "اصنع كذا حتى أمضي إلى المجمع أفتقد الأخوة، لأننا أبطأنا عليهم ثم أعود إليك بمشيئة الله"...

وبعد لحظات عاد باخوم يقول له "إذ مضيت إلى المجمع يا تادرس فلا تبطئ بل خذ الخبز وارجع إلينا سريعاً". فأجابه "حسناً" دون أن يراردده في الكلام، لأن ما أمر به الأب في هذه المرة اختلف عما قاله منذ لحظات.

فإذا أراد تادرس أن يذهب إلى المجمع سأله باخوم "إلى أين تذهب يا تادرس؟".

أجابه "أنا بالطاعة فعلت، وعندما قلت لي ألا أذهب فعلت هكذا. ولما عدت وكررت القول "إذا مضيت يا تادرس لا تبطئ" أجبتك حسناً فأنني أعمل كما تقول".

عندئذ تهال باخوم بالروح من أجل طاعة هذا الابن وقال له "حسناً هيأت نفسك لكي تفعل هذا. وإنما يلزمني أن أخبرك بما قد حدث ليكون لك راحة قلب من أجل أعمالي التي هي بحسب مشيئة الله.... فأنني عندما كنت أحدثك بما يجب أن تصنعه حتى أعود إليك، فأن ملاك الرب قال لي "لا تمضي أنت بل يمضي تادرس" من أجل غيرت قولي للحال وقلت لك "إذا مضيت لا تبطئ عن المجيء".

٢- **<u>محبته الروحية لعائلته:</u>**

مرت سنوات على رهبنة تادرس ولم ترى أمه وجهه ولا جاءها منه خطاباً، فقصدت أسقف بلدها والأساقفة القريبين منها وأخذت منهم خطابات توصية لترى ابنها.

حملت الأم الخطابات وذهبت إلى دير الراهبات الذي ترأسه مريم أخت باخوم، ومن هناك أرسلت إلى الأب تستعطفه أن يرسل إليها ابنها لتراه، وأرسلت له خطابات التوصية. فأستدعى الأب تلميذه وأخبره بالأمر وطالبه أن يذهب لرؤية أمه من أجل خطابات الآباء الأساقفة. أما هو ففي جدية

قال لأبيه "يا أبي العزيز أن أمر مخلصنا واضح إذ قال "ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت السموات".

أجابه الأب أنه ما دام الأمر هكذا فأنه لا يقدر أن يلزمه بمقابلتها... وتهللت نفسه جداً من أجل ثبات تلميذه....

وإذ رفض الابن مقابلة أمه رفضاً باتاً، لم يكن أمام تعلق قلبها به إلا أن تبقى في دير الراهبات لعلها تراه يوماً ما...

ومرت الأيام والدموع لا تجف من عيني الأم... وأمام هذا المنظر دبر الأخوة الرهبان عملاً لتادرس من خارج الدير وأخبروا أمه فرأته دون أن يراها ولا علم حتى بما دبره الرهبان له.

وأمام محبة تادرس للرب الإله، الحب، الذي جعله يحب كل الخليقة حباً روحياً عميقاً... دون أن يرتبط بمحبة عاطفية أو جسدية بأمه فيرفض –كراهب– أن يلتقي بأمه... التهب قلب الأم أيضاً بمحبة الرب، واشتاقت أن يكون لها ما لابنها، فأرسلت رسولاً يحمل رسالة خاصة بتوزيع كل ممتلكاتها، إذ تبقى هي في الدير في حياة عشق إلهي....

وأشع الحب الإلهي في قلب "بفنوتي" الأخ الأكبر، فذهب هو أيضاً إلى الدير راغباً في الرهبنة، ولم يكن القديس تادرس هناك، إنما كان في خدمة... فكان يقول للأخوة أنه ما لم يجتمع بأخيه تادرس لا يترهب.

جاء تادرس وأخبره الأخوة بقول أخيه، فلم يقبل أن يلتقي به، لولا أن أبيه باخوم طيب خاطره وطلب منه ألا يعثر أخاه... فمضى إليه وسلم عليه، ثم قال له "إن كنت من أجلي قد جئت إلى هاهنا فأرجع إلى الموضع الذي أتيت منه. وإن كنت من أجل الله جئت لكي تستحقه، فلماذا لم تقبل أن تذهب (أي يدخل ضمن المتقدمين للرهبنة) حتى أجيء إليك؟!".

ولما قال هذا هم بالخروج، فأمسكه أخوه قائلاً "كم من الأيام وأنا أنتظر مجيئك، وأنت لما جئت هكذا تكلمني بقسوة؟!"

أجابه تادرس "إن كنت من أجلي أتيت لتترهب، فأنني أن تخليت أنا عن الرهبنة تتخلى أنت أيضاً. وإن كنت قد أتيت من أجل مخافة الله، فأنني أن صبرت أنا أو لم أصبر، أنت تبقى راسخاً على الدوام".

وإذ أراد بفنوتي أن يسكن مع تادرس رفض قائلاً له لئلا يكونا مثل الجسدانيين، إنما جميع الذين في الدير هم أخوة وبنين لأبيهم بلا تمييز....

وكان باخوم دائماً يطلب من تادرس أن يترفق بأخيه قائلاً له أنه غرس جديد يحب الترفق به إلى أن يدرك المفاهيم الروحية العميقة...

٣- <u>جهاده في محبته لله</u>

كانت أنظار تادرس في كل جهاده تتركز حول شخص الرب يسوع... وإذ بقى حوالي ستة شهور، جاء ذات يوم إلى أبيه باكياً بمرارة. وإذا رآه الأب هكذا سأله "ما بالك تبكي؟".

فأجابه "أريد أن تعرفني إن كنت أرى الله أم لا؟! فإن كنت لا أتأهل لنظر خالقي، فماذا أنتفع من ولادتي ووجودي في هذا العالم؟!"

عندئذ سأله الأب "أتريد أن تراه هاهنا أم هناك؟".

أجابه "هناك".

فقال الأب "بالحقيقة إن أردت أن تراه، فأصنع ك جهدك في تنفيذ وصايا الإنجيل، إذ يقول "طوبى الأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله".

فإذا ما تسلل إلى قلبك فكر نجس أو بغضة أو زنا أو احتقار لأخيك أو مجد باطل، ففكر في تلك اللحظة وقل في نفسك "إذا أنا طيبت قلبي بأحد هذه الأفكار فأنني لا أرى الله".

وإن أردت أن تضعف الأفكار فلا تقوى عليك، ألهج في قلبك بغير فتور في كل حين بثمرة صالحة من الكتاب المقدس فبهذا تحصن قلبك... وهكذا تنفض عنك الأفكار الرديئة شيئاً فشيئاً، فتضعف كمثل العنكبوت...

ثم أخبره الأب بأنه متى استهان الإنسان شيئاً فشيئاً تتبلد نيته في الحياة مع الرب، لكن متى تيقظ دائماً، فأن الروح القدس يجعل أعضاء نفسه بهية وطاهرة... الخ.

وإذ سمع تادرس أقوال أبيه ابتهجت نفسه فيه، وصار يستعد بفرح أن يسلك بطهارة قلب لكي يكمل له الرب شهوة قلبه وهي أن يرى الله في الدهر الآتي.

وقد حدث في نفس العام، إذ كان يصنع حبالاً في قلايته وهو يتلو مما حفظ من الكتاب المقدس، وإذ بفكر نجس يهاجمه. فقام للحال وأخذ يصلي، وللحال تطلع فرأى القلاية وقد أضاءت، وظهر له ملاكان مضيئان في شبه إنسانين، فخاف إذ لم يكن رأى رؤى من قبل، فهم بالخرج لكنه من خوفه سقط، فأقاماه ونزعا الخوف عنه ثم دعاه أحدهما وسلمه مفاتيح كثيرة....

٤- جهاده في النسك

رأينا أن تادرس كان وهو في بيت أبيه يقتدي بسير النساك متدرباً على حياة الصلاة والصوم... فكثيراً ما كان يتهرب من والدته ليصوم اليوم كله... وفي السنة الثانية كان أحياناً يصوم يومين يومين...

وفي الدير جاء إلى أبيه باخوم في أيام البصخة، قائلاً "يا أبي حين كنت علمانياً كنت أصوم يومين يومين، والآن ماذا ينبغي علي أن أفعل وقد أدخلني الرب إلى هذا الكمال؟! هل أصوم إلى رابع يوم ثم أعمل في اليومين الأخيرين؟".

أجابه أبوه بأنه يلزمه ألا يزيد عن اليومين لئلا يعجز عن العمل والصلاة... فالصوم يجب ألا يكون عائقاً عن تنفيذ الوصايا بل مساعداً لها. وإذ رأى إنسان في نفسه أنه قادر على الصوم أربعة أيام، وجسده قوي يقدر على العمل والصلاة، ونفسه في يد الرب فلا ينتفخ أو يسقط في الكبرياء... فأن هذا أيضاً متى صام أربعة أيام متوالية يعثر الضعفاء الذين في الدير فأنهم يتشبهون به فيتعبون. هذا بالنسبة للراهب في الشركة، أما النساك الكملاء فهؤلاء لهم أن يصوموا هكذا لا في أيام البصخة فحسب بل كل أيام حياتهم تكون بالنسبة لهم كأنها بصخة إلى يوم افتقادهم...

فلما سمع تادرس أقوال أبيه قبلها بطاعة كما من الروح القدس.

٥- <u>حبه لخلاص كل نفس</u>

أراد أحد الأخوة أن يترك الدير، لأن أبانا باخوم كان قد أنبه، فلما سمع تادرس بأمره تظاهر هو أيضاً بأنه يرغب في ترك الدير. فذهب إلى الأخ وقال له بأن باخوم كثيراً ما يوبخه وأنه متألم مثله... والآن فإما يبقيا معاً في الدير أو يتركا الدير معاً... وأقترح عليه أن ينفردا هما الاثنان في موضع حتى ينظراه أن كان يكف عن التوبيخ وإلا تركا له الدير.

فلما سمع الأخ ذلك وافق على رأيه. وكان إذا اجتمع الأخوة ليمعوا للقديس باخوم، لم يكن تادرس يحضر معهم، ولم يكن يحدث باخوم أمام الأخوة، إنما كان يمضي بالليل مرات كثيرة ويخبر الأب بأمر الأخ وآلام نفسه وكان يسأله قائلاً "أعنا يا أبانا أنا وأخي لكي تخطفنا من يد إبليس، هذا الذي يريد أن يبتلع نفسينا ونحن صغيران وضعيفان في الإيمان، وإنني أؤمن أن السيد المسيح الساكن فيك يستطيع أن يخلصنا وليس عنده شيء عسير".... ثم كشف تادرس لأبيه أمر الأخ.

وانقضى شهر وهو على هذا الحال، ثم قال تادرس لأخيه "امض بنا إلى الأب دفعة أخرى نكلمه، فإن كلمنا بجفاء نمضي إلى موضع آخر ونفترق منه، وإن احتملنا بمحبة أخوية نصير عليه. فلما ذهبا إليه كلمهما بلطف ومحبة أما تادرس فتظاهر بالغضب... فبدأ باخوم يهدئ نفسه قائلاً له "كفى يا ولدي أنني أعترف بخطئي... أما تحتملان ضعفي بوصفكما من الأبناء الأبرار؟!".

لكن تادرس لم يتوقف عن استخدام الألفاظ القاسية، حتى خجل الأخ من نفسه وصار يشير على تادرس بالسكوت. ومنذ تلك الساعة عاد إلى الأخ سلامه وانتزع عنه الضجر.

وحدث أيضاً أن أحد الأخوة كان ذاهباً إلى العالم، وإذ كان باخوم يخشى عليه أرسل معه تادرس بعد ما أوصاه أن يهتم به حتى يعود إلى الدير. فذهب كلاهما إلى أهل الأخ، وهناك أحضروا لهما أكل، وإذ كان الوقت صوماً لم يقبل تادرس أن يأكل، فقال له الخ "إن كنت تأكل معي أذهب معك".

فتذكر تادرس قول أبيه، فأستحسن أن يكسر صومه ليربح ابناً للرب يسوع، فأكل معه وأعاد الأخ إلى الدير.

وأيضاً جاء عن أحد الأخوة يدعى أرشلاوس، هذا كان هذا كان ناسكاً جداً، ولكنه كان يذهب إلى أهله. ومن أجل ضعفه لم يكن الأب يمنعه، لكنه كان يبكي من أجله.

وإذ كان تادرس مع أبيه مر عليهما ذلك الأخ، فقال أبونا باخوم "يا للعجب في هذا الأخ! إنه يتعبد منذ سنين كثيرة والشياطين تطغيه فيمضي مرات كثيرة إلى أهله يسأل عنه". فإذ سمع تادرس ذلك وشعر بحزن الأب عليه دخل إلى قلايته وأخذ يصلي قائلاً "أيها الرب... أني لست مستحقاً الصلاة من أجل عظم الأتعاب التي صنعها هذا الأخ لكي من جهتي تطهره من هذا الأمر، فأجد رحمة بين يديك".

وبعد ما انتهى من صلاته هذه، اتجه إلى حيث يفسر الإنجيل فسأل هذا السؤال للأخ "لماذا لم يسمح الرب لتلميذه أن يمضي ليدفن أباه؟

أجابه الأخ "لم يتركه يمضي لئلا يذهب ولا يعود".

سأله أيضاً "أن مضى أحد إلى أهله اليوم أما يخالف وصية الإنجيل؟".

فقال الأخ "إن كان يمضي ويسأل عليهم فقط، فهذا ليس بخطية".

فقال له تادرس "...أنني من قبل أن أجيء إلى هنا كنت أجاهد قدر صغر سني وضعفي فيما يظهر لي أنها إرادة الله (أن لا يتعلق قلبي وأنا راهب بأهلي حسب الجسد) وإذ علمت عنكم هذا جئت إليكم" ثم أدار تادرس وجهه وبكى بمرارة وحزن.

فإذ رأى الأخ ما حدث لم يستطع أن يسكت تادرس، فأسرع إلى أبينا باخوم قائلاً "تعال إلى هذا الأخ الصغير وأعطه كلمة تعزية لئلا يشك...." ثم أبره عن الأمر. فلما علم باخوم بما صنعه تادرس، تفاهم مع الأخ ألا يعسر تادرس الغرس الجديد في الدير.... ثم ذهب الاثنان إلى تادرس وبأ باخوم يلطف الحديث مع تادرس قائلاً له أن هذا الأخ إنما نطق بهذا معك لأنك غرس جديد ولا يريد أن يعثرك، ولكن ليس هذا هو اعتقاده". فطلب تادرس أن يسمع هذا القول على فم الأخ لتستريح نفسه... فبدأ الأخ يرجع إلى نفسه واعترف له بأن الراهب يلزمه ألا يرتبط بأهله الجسدانيين، ومن ذلك اليوم لم يعد هذا الأخ يترك الدير إلى يوم انتقاله.

تادرس يعظ

إذ رأى باخوم أن تادرس يتقدم سريعاً في النعمة، أقامه يوماً ليعظ في قاعة الاجتماعات... وأخذ باخوم ينصت إليه... لكن جماعة من الشيوخ تذمروا في داخلهم، ولم يستطيعوا أن يكتموا غيظهم فتسللوا من القاعة، مظهرين استياءهم.

فلما انتهى تادرس من الحديث، وكان قد تكلم ببساطة متناهية وبقوة عجيبة، حتى كان لحديثه أثر عجيب على سامعيه... بل وباخوم نفسه اندهش من النعمة التي وهبه الله إياها.

وبعد هذا الاجتماع نادى باخوم جماعة الشيوخ المتذمرين وقال لهم "لماذا انفصلتم عنا؟! ولماذا ابتعدتم منا؟! ألم يقال أن الرب أقام صبياً بين تلاميذه وقال لهم من يقبل ولداً صغيراً مثل هذا باسمه إنما يقبله هو؟!!".

وأن كنتم لا تذكرون هذا، أفما ترون أنني قائم بين جميع الأخوة مثل طفل، فلماذا لا تغلبون روح الشر؟!

فأجابوه "إنك جعلت واعظنا ومعلمنا شاباً مبتدأ، بينما نحن شيوخ وأقدم من في الدير، فرأينا ذلك إذلالاً وإهانة لنا".

فلما سمع الأنبا باخوم هذه الإجابة تألم جداً وتنهد قائلاً "يا له من مصاب أليم، واعتذار معيب.. إذ ملكنا عدونا، لأن مشائخنا ومقدمي ديرنا وأوائلنا يلتمسون الكرامات ويطلبون التمجيدات. بالحقيقة أن داءكم قتال، ومرضكم عضال. أما علمتم كيف جاء حب الرئاسة إلى العالم، أليس من الكبرياء سقط كوكب وجعله يهوى على الأرض متهشماً،.... أما سمعتم الكتاب الإلهي يقول بأن المرتفع بين الناس مرذول قدام الله...

لقد طرحتم رأس فضائلكم الذي هو الاتضاع، واستبدلتم عوضاً عنه بالكبرياء الذي هو أم الرذائل وأولها... فأنتم لم تتركوا تادرس بل انفصلتم عن الله الساكن فيه والناطق على لسانه...

فمست هذه الكلمات قلوبهم وشعروا بخطئهم وندموا على ما فعلوا.

انتدابه أقنوماً لدير طبانسين

بعدما وبخ هؤلاء الشيوخ أقام تادرس أقنوماً لدير طبانسين وهو بعد لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره. وقد امتاز تادرس باستشارته للأخوة الذين بالدير في كل شئون الدير. وكان يحضر يومياً بالمساء إلى الأب باخوم (في دير بافو) ليعرض عليه بعض العظات ويستشيره في أمور الدير. وقد كان الأب باخوم يحب ابنه ويكرمه من أجل نموه المستمر في النعمة.

وقد حدث أن أخاً من الأخوة الذين بدير طبانسين يحارب من شيطان، فحمله تادرس على حمار وجاء به إلى الأب. وإذ كان الأب يتحدث مع النساك ورأى ابنه آتياً اعتذر وذهب إلى ابنه فتقمقم بعضهم لأنه تركهم وذهب يستقبل تادرس الشاب.

فلما سلم عليه وعرف الأمر، مضياً معاً إلى المجمع ووقفا يصليان حتى التاسعة، وفيما هما يصليان ظهر لهما كرسي عظيم فوقهما والرب جالس عليه.... والكرسي كان تارة يرتفع إلى أعلى حتى يكاد لا يظهر وتارة ينزل بجوارهم، فكان متى نزل يمسك باخوم ابنه ويقول للرب "يا رب اقبل قرباني"...

وبقى هذا المنظر حوالي ثلاث ساعات. وهو يقول باخوم تلك الكلمات ويصلي. وبعد ذلك أرسل أبنه ليحضر المريض، وصليا عليه فسمع الرب صلاتهما وشفاه.

تادرس دير في بافو

لما نما تادرس في عمل الرب بطبانسين أخذه الأنبا باخوم عنده في دير بافو، وأقام آخر عوضاً عنه. وكان تادرس مساعداً لباخوم، أقنوماً أولاً ومشرفاً عاماً على سائر الأديرة يفتقد الأخوة ويشفي أمراض نفوسهم، ويقبل الراغبين في الرهبنة... وكان يمتاز ببشاشته ولطفه مع الجميع... لذلك كان محبوباً ومهوباً من الكل.

مضى مرة إلى أحد المجامع ليفتقد الأخوة كعادته، فجاءه أخ يشتكي له بأن كتابه قد سرق... فطمأنه الأخ بأنه سيعيده له. وبالليل جاءه السارق نادماً معترفاً بخطاياه وسلمه الكتاب.

وفي ذات يوم بينما كان في الكنيسة مع الأخوة، وكانوا يرتلون بالمزامير، إذ به يرى السيد المسيح جالساً على كرسي ويحيط به الأثنى عشر رسولاً... الخ.

وحدث أيضاً في المجمع أمراً غير صالح، ولم يعرف كبير المجمع ولا الأخوة من الذي صنع هذا الفعل. وإذ لم يعرفوا ظنوا في أحد الأخوة –كان معروفاً بضعفه– أنه مرتكب الفعل. فخاف الأخ من الإنكار لئلا يضربوه ويخرجوه من المجمع. فطلب الأخوة ألا يخرجوه إلا بعد استشارة الأب تادرس. وإذ شعر المذنب بخطئه ذهب إلى تادرس ليلاً وطلب منه أن يؤدبه. وإذ سمع تادرس إليه قال له بأنه ما دام قد شفق بأخيه المظلوم، فأن الله يعطيه توبة فيما يفعل.

وفي الصباح اجتمع الأخوة بأبيهم تادرس وأخبروه بالأمر... فأخذه تادرس على انفراد وإذ قال له الأخ أنه لم يرتكب الذنب قال له بأن الله قد سمح باتهامه ظلماً تأديباً لفعل ارتكبه في الخفاء لم يره أحد... لذلك يلزمه أن يتوب عن خطاياه الخفية ويحفظ نفسه في يدي النعمة الإلهية.

وفي نهاية حديثه طلب منهم ألا يسألوه عما سيفعله ما داموا قد سلموه الأمر.. وهكذا لم يكشف تادرس من المرتكب الذنب، وحول الاتهام كفرصة لتوبة المظلوم أيضاً.

وفي وسط هذه الخدمة لم يكن تادرس ينسى نفسه، ففي ذات يوم رأى شاباً قوياً يكثر من أجل الكرات. فإذ كان يتحدث مع الأخوة وكان من بينهم هذا الشاب، فقال "الراهب يلزمه لا يأكل من الكرات حتى يشبع لئلا يقوى عليه جسده". وبعدما تكلم بهذا تألم تادرس جداً لأنه لم يطل أناته عليه... وإذ سمع الأخ الكلمة لم يعد يأكل الكرات طول حياته، وإذ سمع تادرس بهذا هو أيضاً امتنع عن أكل الكرات لئلا يدان عما يعلم به ولا ينفذه.

وكان تادرس في وسط خدمته هذه ينمو يوماً فيوم حتى تأهل لنعم كثيرة وكان الله يكشف له رؤى هادفة لأجل تشجيعه وتثبيته في حياته الروحية وفي الخدمة.

وفي ذات يوم مضى الأنبا باخوم إلى الدير، فأمر تادرس أن يهتم بالأخوة. وفي الليل قام تادرس وكان يجول في المجمع لينظر الأخوة، وإذ وقف يصلي رأى الأخوة نياماً مثل الخراف وملاك الرب قائماً في الوسط. فلما نظره تادرس أسرع إليه... وقبلما يقترب منه سأله الرب "من الذي يحرس الأخوة أنت أم أنا؟!".

فرجع تادرس إلى الوراء ثم قال إن ملائكة الله هي التي تحرسنا... وكان الملاك الذي ظهر له شبه جندي عليه درع كبير عظيم، وهو جميل جداً ومنطقته عريضة وهي بهية جداً تبرق.

وكثيراً ما كان الله يكشف له مع أبيه باخوم أن يرى الملائكة تحمل نفوس المنتقلين من الأخوة الرهبان وهم فرحين متهللين.

عزله من طقسه

مرض الأب باخوم مرضاً شديداً، فألتفت الأخوة حوله ومعهم تادرس... ففكر البعض فيمن يكون لهم أباً بعد باخوم واستقر رأيهم على تادرس... وإذ كان تادرس في ذلك مقاتلاً بحرب عنيفة من عدو الخير ألا وهي حب الرئاسة وافق للحال.

فلما شفى الأب من مرضه حزن جداً بسبب سقوط تادرس في هذا الأمر ووبخه... خاصة وأن باخوم كان يعلم بالحرب التي كانت تهاجم ابنه في ذلك الوقت... لهذا أمره أن ينعزل، ويذهب إلى مجمع أتموشيس بالقرب من دير بافو... فأطاع تادرس، وإذ بلغ إلى "المعدية" ركب السفينة وإذا بملاكين يظهران له في شكل شيخين تحدثا معه عن الطاعة الكاملة والخضوع إلى النهاية... فعرف أنهما جاءا لأجله لكي لا يعود يستسلم لحب الرئاسة.

وكان تادرس يبكي بمرارة من أجل سقوطه، وكثيراً ما كان يأتي في المجمع ويسجد أمام الأخوة متوسلاً أن يصلوا من أجله.

وقد ظن البعض أن بكاءه هذا من أجل عزله عن طقسه، فكانوا يعزونه عن ذلك... وكان البعض يذم في باخوم على تصرفه هذا ظانين أنهم بهذا يعزون تادرس... بل ومن فرط دموعه كان إذا خرج من الدير لقضاء أمر كان أحد الأخوة يتتبعه خائفاً لئلا يترك الرهبنة.

أما تادرس فلم يكن يخطر في فكره شيئاً من هذا القبيل قط، إنما كان بكاؤه من أجل خطئه هو.

تادرس بعد نياحة أبيه

رأينا عند نياحة الأب باخوم كيف أمسك تادرس بلحية أبيه، وقد طالبه الب ثلاث مرات أن يحفظ عظامه...

وبعد نياحته صار بطرونيوس الأب العام للأديرة وذلك لمدة أيام قليلة وتنيح. ثم تلاه أورسيوس الذي كان قلبه متعلقاً جداً بتادرس، وكان تادرس يحبه ويطيعه ويصغي إلى عظاته كصبي متعطش للمعرفة... وعندما حدث الانشقاق رأينا أن أورسيوس بإرشاد إلهي طلب أن يكون تادرس هو الأب العام... وبعد إلحاح شديد وتذكيره بقول أبيه له أن يحفظ عظامه ثلاث مرات أنه إشارة إلى حفظ مجمع الشركة من الانقسام، قبل الرئاسة على أنه ما كان يصنع شيئاً إلا بعد استشارة الأب أورسيوس. فعاد كثيرون إلى الشركة وبقى القليل معانداً... مما أحزن نفس تادرس فكان قلبه متألماً جداً...

وفي عشية السبت الكبير مرض الطوباوي تادرس وعرف بانتقاله، فأهتم بالفصح المقدس، وجمع رؤساء الأديرة يطلب منهم الفصح. فحزن الأب أورسيوس، وصار الأخوة يبكون ثلاثة أيام... أما هو فطلب صلواتهم ثم انتقل إلى الفردوس في ٢ بشنس سنة ٣٧٥م...

وكان لموته أثراً كبيراً في نفوس المنشقين عن الدير الرئيسي الذين جاءوا نادمين وعادوا للخضوع للدير الرئيسي تحت رئاسة الأب أورسيوس.

شهادة البابا أثناسيوس عنه

في أثناء رئاسته للأديرة وفد الأب أثناسيوس بابا الإسكندرية إلى مدينتي أنتينوه وأرموبوليس ثم ذهب إلى دير بافو ولم يكن هناك أورسيوس فكتب رسالة يمدح فيها هذا العمل الجميل واقتدائهما – تادرس وأورسيوس– بأبيهما. وكان تادرس مرافقاً للبابا الذي أعطاه مركب الدير تساعده إذ كانت المركب التي للبابا مثقلة.

+ + +

٤- الأب كرنيليوس

كان ناسكاً جداً، وقد تشكك في أمر معرفة الأب باخوميوس بعض تصرفات الغير... وإذ طلب من الله أن يكشف الأمر، عرفه الرب كيف يعلن لباخوم عن تصرفات الغير... ومن تلك الساعة كان يحب باخوم حباً شديداً.

وكان يقول للأخوة ببساطة أني أجاهد بنفسي كثيراً لكي يعطيني الرب أن أكون بجانب أبينا باخوم في الدهر الآتي، ولا يكون أحد بينهما.

وإذ رأى جهاد تادرس ونموه قال "لقد كنت أقول إلى اليوم إني أجاهد أن أكون بجوار باخوم في الدهر الآتي. وهوذا أرى أعمال تادرس مرتفعة أفضل من أعمالنا. والآن أقول لكم أنني لا أفتر في الجهاد حتى أكون بجانب تادرس في موضع الراحة".

وفي ذات يوم إذ أذهب إلى مجمع طبانسين ومعه الأخوة، وذلك لعمل ما، سلم على تادرس ثم سجد له. فاستحى تادرس وانسحق قلبه، ومن حيائه انعزل عن المجمع وهو متألم جداً. فلما اختلى به كرنيليوس قال له إنه ما فعل ذلك إلا بأمر الله.

وفي ذات مرة ركب أخان مع الأب باخوم في مركب للافتقاد، وفي المساء سألهما عما إذا كانا يريدان الصلاة انفرادياً أم جماعياً. فطلبا الاشتراك في الصلاة فأخبرهما بأن الأب بلامون علمه إما أن ينام ساعتين في بداية الليل ثم يسهر وينام ساعة في نهايته، أو يسهر حتى الربع الأخير، إذ ينام الربع الأول. فناما ساعتين أخذا يصلين مع باخوم حتى غلبهما النوم وبقى الأب ساهراً.

ولما وصلا الدير أخبرا كرنيليوس بالأمر فقال لهما "هل تجعلان شيخاً يغلبكما وأنتما بعد شابان".

وفي المساء صلى الجميع حتى تعب الأخان وناما وبقى كرنيليوس ساهراً مع باخوم حتى الصباح. وفي الصباح قال للأب "ما هذا الذي صنعته بي أيها الأب حتى لا تتركني أخرج حتى أشرب قليل ماء بعد العشاء". أجابه الأب "هل تترك شيخاً يغلبك وأنت بعد شاب" فأدرك كرنيليوس خطأه واعتذر للأب عن حديثه مع الأخين.

+ + +

٥- الأخ سلوانس

كان هذا الأخ في بداية حياته مغنياً، تاب عن فعله وهو في سن السادسة عشر أو السابعة عشر وذهب إلى الدير حيث قضى عشرين عاماً ثم عاد إلى قبيح عمله.

فأخذ الأب يوقظه ويعظه وصار يتوعده بالضرب والطرد، وفي هذا كله لم يتب. فكان الأب يصلي من أجله كثيراً مطيلاً أناته عليه.

وأخيراً سلمه لأخ ناسك (سانامون) يمتاز بالتحنن والترفق وأعطاه معه خمسة رجال آخرين، قائلاً له اذهب بهم إلى مجمع كذا حتى آجيء إليكم غداً، وذلك لكي يطرد سلوانس لئلا يفسد غيره. وفي الليل نخس روح الرب سلوانس فقام يبكي بكاءً مراً، وذهب إلى الأخ سانامون باكياً قائلاً له بأنه حزين لأن خوف الله ليس قي قلبه وغير مطيع لأقوال أبيه باخوم.

وفي الصباح جاء باخوم ومعه رجلان آخرين، فدعى سلوانس وأخبره بطرده، فسجد على الأرض وأخذ يبكي واضعاً التراب على رأسه وهو يقول "تمهل على يا أبي هذه المرة أيضاً، وأنا أتوب وأحفظ كل ما أمرتني به... ليس من أجلك لكنني أفعله من أجل الله الساكن فيك..."

انفرد الأب بالأخ سانامون وقال له بأن هذا الأخ إذ هكذا أفعاله رديئة جداً، فأنه محتاج إلى جهاد عظيم واهتمام شديد، ولما كان هو (أي باخوم) لا يقدر أن يتفرغ له دون بقية الأخوة فأنه مستعد ألا يطرد هذا الأخ بشرط أن يبقى الأخ سانامون معه في هذا الدير يهتم به وبالأخوة الذين جاءوا معه، على ألا يخبر أحداً بسيرة سلوانس حتى لا يعثرهم في شيء فوافق الأخ سانامون على ذلك.

دعى الأب باخوم سلوانس وقال له في حضرة سانامون "هذا أبوك من بعد الله. كل ما تراه يعمله اصنع مثله. إن جلس على المائدة ليأكل اجلس معه، ومتى قام قم... ولا تعمل شيئاً بدون إذنه، ولا تمضي إلى موضع بغير استشارته.

فأجاب سلوانس "جميع ما تأمرني به أنا أفعله يا أبي بفرح بل أعني لتخلص نفسي من الموت".

وبعد ذلك قال الأب لرئيس المجمع ألا يفرق الاثنان عن بعضهما البعض.. دون أن يخبره شيئاً عن أمر سلوانس.

هكذا طرد باخوم الخميرة الفاسدة، وإذ تاب لم يتركه بل قبله وأودعه في يدي أب حكيم دون أن يخبر أحداً من الذين في المجمع عن أمره.

وقد صار سلوانس مطيعاً للأب سانامون طاعة كاملة. فإذ أخذه من بين الأخوة في نصف النهار لم يأكل معهم، بل أكل في المساء. وبعد الأكل انتزع من قلبه خوف الله... فلما نظر في قلبه هذا الأمر دخل للوقت في موضعه وصلى نحو ثلاث ساعات مستمرة وهو يقول "يا رب. لقد أكلت خبزاً قليلاً فصرت بلا خوف حتى أنني أنسى ما قد أمرني به عبدك..." وكان يطلب من الله أن يؤدبه وإذ أطال صلاته صار قلبه مع الرب.

وكان إذا ما أكل مرة في النهار لا يشرب... ويداوم على السهر في الصلاة حتى أنه ما أراد النوم ينام جالساً ولا يستند على حائط.

وحدث أن أب المجمع مرض يوماً فجاءوا به إلى المكان المخصص للمرضى وقدموا له طعاماً خاصاً بالمرضى فأكل، أما سلوانس فإذ كان أيضاً مريضاً لم يقبل أن يأكل بل بقى في نسكه كما هو. ولما رأى الأب ذلك قفز من سريره وهو يقول "هذا الصبي صار أقوى مني في عمل الرب"...

شهادة باخوم له

وبع زمان أتى بعض الأخوة ليحصدوا حلفاً وكان معهم أبونا باخوم، وكان يكلمهم بكلام الرب، ثم قال لهم:

"إنني أريد أن أخبركم هنا عن الأعجوبة العظيمة التي صنعها الرب بينكم... أن واحداً منكم قد تغير... وصار كاملاً في نقاوة قلبه بثمار الروح القدس الساكن فيه. وهو من هذا الوقت لا يخطر بفكره كبرياء القلب قط، أو فكر باطل، أو فكر جسدي، لأن كل ما يعمله يصنعه بخوف الله دائماً بغير فتور،

حتى أنه مع طهارة نيته ونقاوة قلبه في جميع سيرته امتلئ من الروح القدس... ولم يصر أحد منكم مثله...

وإذ أقول هذه الأمور عنه وهو في وسطكم ويسمع جميع هذه الكرامات التي قيلت عنه علانية، فإنه لا يفكر بشيء من كبرياء القلب ولا المجد الفارغ، إنما فقط يفكر بهذا قائلاً "إني أقيم نفسي وأجاهد لكي يهبني الرب الحياة الأبدية ويخلصني من العذاب العتيد". وإذ مدحه قوم، يثور فيه هذا الفكر "أترى أنا مستحق للحيل بأي نوع، وهل أنجو من العذاب الأبدي؟!".

وإذا شتمه قوم يفكر أيضاً في نفسه قائلاً "إذا احتملت كل ما يأتي علي فهذا علامة إني أتأهل لحياة الله".

ولا تظنوا أن هذه النعمة أدركته من أجل نسكه، فإن كثيرين من الأخوة يتنسكون أكثر منه بأصوام ونسك دائم، ولا لكونه قد طالت مدته في الصبر مثل بعضكم، ولا أقول عنه أن له علم كثير... إنما النعمة التي صارت له من عند الرب بسبب أنه قتل الأعمال الرديئة من قلبه بسيف حاد، بالطلبات التي يصنعها إلى الرب في النهار والليل بسهر في الخفاء، ولكونه يتنسك قدر طاقته بخوف الله مع نقاوة قلب.

ولما قال الأب هذا ظن البعض أنه يتكلم عن تادرس وآخرون عن بطرونيوس أو أورسيوس...الخ لكنه لم يرد الأب أن يقول عن اسمه، وإذا ألحوا عليه، ففي اليوم الثالث قال:

"أنني لو كنت أعرف أن العظمة والخيلاء يسيطران عليه بسبب ذكر اسمهن لما أذكره، ولكنني أعرف يقيناً أنه متى مدح اتضعت نفسه وحقر ذاته ولامها بالأكثر.

فأنت يا تادرس وكل المشتركين في هذا الدير المبارك، فأنكم إما بحكم السن أن النسك آباء له. أما من جهة إحكام الإتضاع ونقاوة الضمير وصفاء النية وتمسكن اللب، فإنه قد صار أعلى منكم جميعاً..." ثم بدأ يكلمهم عن عمل الإتضاع في حياته... وأخيراً قال لهم أنه الشاب سلوانس الذي منذ فترة قصيرة كان سيطرد من الدير بسبب رداءة سيرته.

وإذ رأى كثيرون كيف يكرمه الأب باخوم كان كل منهم يمضي إليه قائلاً "يا أبي سلوانس قل لي كلمة انتفع بها" وإذ كان لا يزال شاباً كان يخجل من نفسه جداً وفي غير غضب أو قلق، كان بقلب متضع ومنسحق يجيب قائلاً "هل أنا أبوك؟!!".

وإذ بقى سلوانس في جهاد ثمان سنين انتقل إلى الفردوس، وقد شاهد الأب باخوم نفسه وهي منطلقة تزفها صفوف السمائيين وهي في راحة وسعادة.

+ + +

٦- الأب أنتيبوصورة

كان هذا الأب مبتلياً بداء الجزام وكانت قلايته منعزلة. ولم يأكل سوى الخبز والملح مرة كل يومين وكانت يده تدمي من البردى الذي يعمل به.

وكان أبونا باخوم معجباً بهذا الرجل من أجل احتماله، وعدم تذمره، وشكره الدائم... لذلك كان إذ رأى إنساناً قاسي القلب أو متذمراً يأتي به إلى هذا الأب ليرى منظره وجهاده وشكره وعمله بلا توان فيذوب قلبه أمام هذا الرجل.

وإذ كان الأخوة يلحون عليه ألا يعمل بسبب مرضه كان يردد هذا القول "من لا يعمل لا يأكل".

وفي ذات يوم دخل إليه بعض الأخوة، وإذ رأوا منظره عاتبوه كيف أنهم يشفقون بالمرضى والمساكين ويسدون أعوازهم بينما يعمل هو في داخل الدير رغم مرضه. فأجابهم أن من لا يعمل لا يأكل. وإذ أصر على موقفه طلب منه أحدهم أن يترفق بنفسه ولو بدهن يديه بالزيت...

وبعد خروجهم دهن يديه بالزيت، لكن آلامه تزايدت أكثر، وصار البردى يأذيها أكثر من قبل فأمتنع عن وضع الزيت وبقى حزيناً من أجل هذا العمل، أنه رغب في تنعم جسده المريض، عاماً كاملاً...

٧- الأب تيطس

كان هذا الأب مختصاً بخدمة "البيمارستان"[١] بالدير الكبير ببافو. وفي ذات يوم مرض صبي جميل الصورة فكان ضمير الأب ينشطه لخدمة هذا الصبي بفرح ومحبة، فكان يهتم بطعامه كثيراً...

لكن الأب كان يخشى لئلا يكون مخدوعاً من الشيطان، لذلك كان يتنهد كثيراً وهو يقول لنفسه "لماذا هذا الاهتمام الزائد من نحو هذا الأخ؟! هل هو مختار أكر من كل الأخوة أو مريض أكثر من جميعهم؟! لا.

فلما فرغ الأب من خدمة المرضى، مضى إلى قلايته وصار صائماً لا يأكل ولا يشرب ماء في ذلك المساء.

وأخذ الليل كله يصلي وهو يقول "يا ربي يسوع المسيح اظهر لي هذا الأمر، حتى أعرف ما هو هذا. لأن هذا النشاط الذي في قلبي ليس بمستقيم أمامي حسب التعاليم التي علمني إياها عبدك باخوميوس".

وإذ اقترب الصباح، وهو مستمر في صلاته، إذ به يرى روحاً قائماً قدامه على شكل امرأة حسنة المظهر واللباس. قالت له "الآن اعلم إنني روح الزنا. وأنا الذي زرعت فيك ذلك الفرح والنشاط في قلبك لكي تخدم ذلك الصبي بمحبة واجتهاد... وهذه هي صناعتي وعادتي، أن أزرع في قلب النساك الكبار أولا المحنة إما تجاه إمرأة أو صبي، فإذا لم يقبلوا الفكر، إذ يروا فيه خطية، حينئذ أعود فأزرع فيهم اللذة قليلاً قليلاً، حتى إذا ما صاروا غير مفلحين، أطرحهم في دنس الشهوة".

ولما قالت هذا اختفت عن نظره[٢].

+ + +

(١) أي المكان المخصص للمرضى.

(٢) جاء في نسخة اميلينو أن اسم هذا الأب (ديدونا) وجاء في بستان الرهبان أن هذا الأمر حدث مع الأخ زوريه.

٨- تادرس الإسكندري

ولد هذا الأخ من أبوين وثنيين. آمن منذ صبوته بالسيد المسيح، وامتاز بميله الشديد نحو النسك والعبادة، فشاعت سيرته، وقربه البابا أثناسيوس إليه.

ويبدو من سيرته أنه كان يونانياً ولا يعرف القبطية، لأنه عندما يتحدث مع باخوم بواسطة مترجم. كما جاء في السيرة أنه لما ذهب إلى الدير الباخومي تعلم القبطية.

أحب تادرس الرب يسوع واشتاق إلى الرهبنة، فترهب إثنى عشر عاماً بالإسكندرية... وقد رسمه البابا أثناسيوس أغنسطساً.

وفي ذات يوم ذهب مع بعض الأخوة إلى القديس باخوميوس فسأله الأب (بواسطة المترجم) عن الأخوة المنعزلين بالإسكندرية والكهنة... وانتهى الحديث بأن كشف له باخوم بأن الإنسان الذي ينعم جسده بالأكل والشرب لا يقدر أن ينعم بالطهارة. إذ كان مع باخوم عصا صغيرة ضرب بها الأرض مرتين وقال "هل تسقي هذه الأرض وتضع فيها زبلاً ولا تنبت زواناً؟!.

هكذا الجسد إن هو تنعم بالأطعمة والأشربة والراحة، فأنه لا يستطيع أن يكون في طهارة، لأن الكتاب يقول بأن الذين للرب يسوع قد صلبوا الجسد وشهواته"...

تاق تادرس أن يعيش في الأديرة الباخومية، فسلمه الأب إلى أحد الشيوخ حيث قام بتهذيبه.

تعلم تادرس القبطية، فأنتدبه الأب لخدمة الضيافة وكان يقرأ الكتب المقدسة ويفسرها للشبان من الرهبان.

أقامه الأب أباً على اليونانيين مع الإسكندرانيين. وكان إذا جاء أحد يوناني يحدثه الأب عن طريق هذا الأب.

جاء عنه أنه ذهب يوماً إلى الأب باخوم يقول له إنني قد سمعت عن كرنيليوس أن عقله يطيش أثناء الصلاة، وإنني جربت اليوم بعدم ضبط الفكر ثلاث مرات فماذا أفعل؟.

أجابه باخوم بأن كرنيليوس لم يأخذ هذا إلا بمداومة الجهاد.

ومكث تادرس ١٣ سنة راهباً في الدير وتنيح بسلام.

بركة صلواته تكون معنا آمين.

+ + +

٩- يوحنا (أخ باخوميوس)

سمع يوحنا عن أخيه باخوم بأنه صار في موضع وحده، وبعد نياحة الأنبا بلامون ذهب إليه، وكان لأول مرة يلتقي بأخيه منذ خروج باخوم من بيته. فسر باخوم به من أجل اشتياقه للرهبنة.

وكان يوحنا قاسي القلب فتعب معه باخوم جداً حتى صار وديعاً...

وفي ذات يوم إذ بدأ الدير يتسع أراد يوحنا أن تكون له علاقة خاصة بباخوم فأنتهره اخوه، فحزن يوحنا. "وللحال قال له باخوم "اغفر لي يا أخي فأنني أضجرت عليك".

وعند المساء نزل باخوم إلى موضع سفلي وأخذ يصلي باكياً طول الليل من أجل عدم احتماله أخيه. وفي صلاة باكر حيث اجتمع الرهبان معاً للصلاة دعاه أخوه وكان يلوم نفسه، وفي نهاية الصلاة قال لأخيه "اغفر لي يا أخي فأنني قد غضبت معك".

وجاء عنهما أنهما في يوم بينما كانا يعملان حبالاً بالحلف، قفز تمساح إلى موضعهما، ففزع يوحنا وهرب وأخذ ينادي أخاه، فأجابه قائلاً "يا يوحنا هل تظن أن له سلطان علينا ليأكلنا؟!".

وإذ قفز التمساح تجاه باخوم، أخذ في يده ماء ورشه في وجهه وقال "ينتهرك الرب، فلا ترجع إلى ها هنا إلى الأبد" وللوقت غطس ولم يرجع ثانية.

وإذ رأى يوحنا ذلك قال لأخيه "الرب يعرف إنني كنت إلى اليوم أقول أنني أكبر منك بالجسد، والآن لا أدعوك أبي فحسب بل وسيدي من أجل إيمانك القوي بالرب".

وأقام يوحنا ١٥ عاماً في الدير في عبادة حارة ونسك عظيم حتى تنيح بسلام. بركة صلواته تكون معنا آمين.